الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١١٠ — ١٢ أغسطس سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 110.

Lundi-12-8-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــدد ١١٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ١٢ أغسطس سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

صفحة

مصر والشرق الاسلامى

إذا قلتَ إننا أمة من غير منهج ودولة من غير سياسة لا تبعد عن الصدق ! فإن التبعية المثلثة التى ضربتها علينا الأقدار الخصيمة فى السياسة والاقتصاد والأدب قتلت فى عقولنا الرأى الأصيل ، وفى نفوسنا العزم المستقل ، وفى مواهبنا العمل المرتجل . فنحن فى مجموع الناس أتباع وأوزاع ننظر إلى الأمم تعمل ، و إلى العالم يسير ، بعين بلهاء لا يجاوز بصرُها مدى العجَب ! وعِلّتُنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول لا من رجال الفعل ، ومن أرباب القلم لا من أرباب السيف ، ومن جنود القانون لا من جنود (الأوامر) ؛ رُبُّوا على مقاعد المدارس ، وثُقِّفوا على مباحث الكتب ، ودُرِّبوا على مكاتب الدواوين ، وحرموا التربية العسكرية وهى وحدها القائمة على الخطة والنظام والأمر والتنفيذ والشرف ؛ فكانت سياستهم سياسة الترقب والتردد والخوف ، لا يُصدرون ولا يوردون إلا عن فتوى فقيه ، أو تقرير خبير ، أو إشارة (مندوب) ، أو رغبة سلطان ، أو إرادة حزب ؛ وذلك هو الفرق بين ساسة مصر وفلسطين وسورية ، وبين ساسة العراق و إيران وتركية ؛ فبينما تجد الأولين — وهم رجال قانون —

مشغولين بالمفاوضات والمعاهدات والاحتجاجات والشكوى ، تجد الآخرين — وهم رجال حرب — لا يتبعون غير قانون الطبيعة ، ولا يفهمون غير سطور الجيش ، ولا يعبأون إلا بالواقع ، ولا يمضون إلا على العزم ، ولا يأوون إلا إلى الأمة

ففي مجلس من مجالس الحكم ، أو في ناد من أندية السمر ، تجول في خواطرهم الفكرة ، أو تجري في نفوسهم الأمنية ، فما هي إلا صيحة القائد حتى تصبح قانوناً مرسوماً كالخطة ، ماضياً كالنظام ، شاملاً كالتعبئة ؛ والعسكري لا يتردد ولا يتلكأ ، و إنما ينطلق ماضي الصريمة قُدُماً إلى وجهه : مبدؤه الأمر ، وطريقه المعركة ، وغايته النصر !

***

تدبر ذلك ووازن بين هـــذه السياسة الدبلوماسية التي تضطرب ولا تستقر ، وتدور ولا تتقدم ، وتناقش ولا تنتج ؛ و بين تلك السياسة العسكرية التي تهجم ولا تضطرب ، وتقدم ولا تتقهقر ، وتعمل ولا تناقش ، فلعلك واجد في الموازنة تعليل هذا الشذوذ الذي نحن فيه : أمة لا تقل عن أكثر الأمم رجالاً ولا مالاً ولا قوة ، يدفعها ماض مجيد ، و يحفزها حاضر مُلِحّ ، و يغريها مستقبل واعد ؛ ثم موقعها من أعظم المواقع ، ومغرسها من أكرم المغارس ، وعدتها الممكنة من خير العدد ، وتراها مع ذلك لا تزال صاغرة تعطى بالقهر ، وقاصرة لا تملك التصرف !

هل تجد بربك علة لجمودها وونائها في غير قيادتها الرخوة وسياستها المستكينة وارادتها المعطلة ؟ ما دستور سياستنا في الغرب ؟ متابعة انجلترا على هوى الاحتلال ، ومصانعة الدول على حكم الامتيازات ، و إطفاء هذه البقعة المشرقة في وجه أفريقية بهذا المظهر الكاسف . وما دستور سياستنا في الشرق ؟ إن كنت تسمى الاغفال سياسة والقطيعة خطة ، فدستورها ما ترى بيننا و بين الحجاز من تناكر لا يسوغه عرف ولا تقتضيه طبيعة ولا تجره منفعة ، وما تشهد بيننا و بين جاراتنا الأخوات من تدابر لا يسلم عليه تضامن ولا يجرى معه تعاون ولا تنتظم به وحدة ، ثم ما تسمع بيننا و بين الشرق الإسلامي من تغاضب على التمثيل السياسي ، وهو أقل ما توجبه الروابط الدينيـة والتاريخية والجنسيـة من التواصل والتعاطف والمجاملة

سخونا إلى حد السرف على تمثيلنا الخارجي في أوربا ، حتى في العواصم التي لا تصلنا بها سياسة ولا تجارة ولا جالية ؛ فلما نبهنا اخواننا في آسية إلى أنهم أمم كأولئك الأمم ، لهم ما ليس لنا من استقلال صحيح وسيادة كاملة ، فضلاً عما بينهم و بيننا من أواصر التاريخ ووشائج القربى ، مثلنا أنفسنا هناك في الغالب بمن تنفيهم الاهواء ، لا بمن تدعوهم الحالة ، وجعلنا للعراق و إيران وأفغانستان سفيراً واحداً يقيم في طهران !

فمس ذلك من كبرياء الأمتين الأختين فتثاقلت العراق عن تعيين سفيرها في القاهرة ، ونقلت الأفغان وزيرها المعين إلى مكة ! ذلك والغرب كله يتحلب فوه إلى ازدراد الشرق ، فهو يستعين عليه (بالعصبة) ، و يحتال له بالتجارة ، و يتدسس إليه بالعلم ، و يدور من ورائه بالمعاهدات ، ثم يرى أن العرب صلبه والاسلام روحه ، فيهجم عليهما بالمودة ، و يتسابق اليهما بالخديعة ؛ ولكن الاسلام والعرب يريدان أن يظل الشرق مطلع النور ومصدر الحرية ومنبت العزة ؛ وتحقيق هـذه الارادة موكول إلى اجتماع الكلمة واتحاد الوجهة وتسايُر الهوى في الأمم الاسلامية التي ألف بين قلوبها العقيدة ، وفرقت بين جسومها المطامع

ومن أحق من مصر إذا استقلت إرادتها وتقررت سياستها وتحررت كفايتها بجمع هذه القلوب المخلصة على جهاد الاستعمار ، وقيادة هذه النفوس المؤمنة إلى نصرة الحق ؟

إن وطننا يا قوم مترامي الحدود ، فلماذا تحدونه على الضيق ، وقومنا ضخام العديد ، فلمـاذا تحصرونهم على القلة ، واخواننا كرام يصفون المودة و يولون المعونة ، فلماذا تجعلون بيننا و بينهم سداً من الاهمال والغفلة ؟ إن الأمم القوية الناجحة لترخص الأموال والأنفس في التمكين لأدبها ونفوذها وتجارتها في الشرق ، فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة في البلد والنسب ، والوحدة في اللغة والأدب ، والمشابهة في الحظ والحالة ؟ !

احمد حسن الزيات

محمد طاهر باشا نور



مثل نادر من المثل العُليا في كرم الخلق وعفة الضمير وصدق النية ؛ استأثر به الله وأمته وأسرته أحوج ما تكونان إلى كفايته ورعايته؛ فكان الأسى على فقده شاملاً يتبين في كل وجه ، ويحز في كل قلب ؛ والمصيبة في الأخيار النوابغ مصيبة الانسانية جمعاء ، لأن كمالها قائم على كمالهم ، وتقدمها سائر على أعمالهم ، وسلامها معقود بما ينبعث عن فِطَرهم النبيلة من إلهام الجمال والخير والحق . كان رحمه الله على كرم أبوته وأمومته ، وشرف منصبه وأسرته ، متواضع النفس لين الجانب ؛ وكان على هذا التواضع وذلك اللين أبيّ الطبع شديد الأنفة ، لا يطمئن على مكروه ولا يصبر على غضاضة . ومن العجيب النادر أنه استطاع على سلامة قلبه من النفاق ، وبراءة لسانه من الملق ، ونزاهة نفسه عن الخنوع ، أن يصعد في مناصب الدولة الخطيرة صعود الشمس في الفلك ، فلم تعقه مكاره العزة والإباء عن بلوغ الغاية منها ؛ وفي ذلك ولا ريب نجاح للكفاية في استقلالها ، وانتصار للحق في ذاته

لم يكن طاهر باشا رجل حزب ، ولكنه كان رجل أمة . حصر جهده في عمله ، وحدد عمله بواجبه ، وانطوى قلبه منذ نشأ على صراحة القانون ونزاهة القضاء ونصاعة العدل ؛ فكان في كل عمل تولاه مظهراً لهذه الأخلاق وموئلاً لأصحاب الحق

وفي سنة ١٩٢٤ كان زعيم الأمة الخالد سعد باشا زغلول رئيساً للحكومة ، وكان رضي الله عنه حريصاً على أن يقيم حكومته على الاخلاص في العمل والنزاهة في التصرف والفناء في الواجب ؛ فخلا يومئذ منصب النائب العمومي ، وهو ألصق المناصب القضائية بسلامة الناس ، لأنه يد القانون وعين العدالة ولسان الحق ؛ فدار الزعيم الجليل بعينه وقلبه في رجال القانون وكبار الدولة يتوسم صفات النائب التي يريدها في الوجوه ، ويتعرفها من الماضي ، ويتجسسها من الأسئلة ، فلم يقع اختياره الموفق إلا على طاهر نور مدير الادارة القضائية ، وهو من غير العاملين معه ولا المقربين إليه ولا المتصلين به . فقام النائب المختار بما حمل من أعباء العدل على ما حققه فيه الزعيم من الفطانة والأمانة والذمة والحكمة ، لا يضطرب في مهب الأهواء ، ولا يسخر سلطانه لشهوات الرؤساء ، ولا يعرّض أخلاق الناس وأعراضهم لهوان السياسة ، حتى طغى في مصر الحكم وفشا في الناس الظلم ، فلم يستطع في ذلك العهد البغيض أن يوفق بين جور الحاكم وعدل القانون ، فنقل وكيلاً لوزارة الحقانية سنة ١٩٣٠ ، وظل فيه على عهد الناس به حتى قبضه الله إليه . رحمه الله رحمة واسعة ، وعوض أمته وأسرته منه خير العوض .

الزيات

الأدب والأديب

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

إذا اعتبرتَ الخيالَ في الذكاء الانساني وأوّليّته دقّة النظر وحُسْنَ التمييز ، لم تجده في الحقيقة إلا تقليداً من النفس للألوهيّة بوسائل عاجزة منقطعة ، قادرة على التصوُّر والوهم بمقدار عجزها عن الايجاد والتحقيق

وهذه النفسُ البشريةُ الآتيةُ من المجهول في أول حياتها ، والراجعةُ إليه آخرَ حياتها ، والمسدَّدة في طريقه مدة حياتها ، لا يمكن أن يتقررَ في خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجوده ، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهي ؛ فهي لا تتعاطى الوجودَ فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فُرغ منه فما يُبدَأ ، وتمّ فما يُزاد ، وخلَدَ فلا يتحوّل ؛ بل لا تزال تضرب ظنها وتُصرّف وهمها في كل ما تراه أو يتلجلج في خاطرها ، فلا تبرح تتلمّح في كل وجود غيبا ، وتكشف من الغامض وتزيد في غموضه ، وتجري دأباً على مجاريها الخيالية التي تُوثق صلتها بالمجهول . فمن ثم لا بدّ في أمرها مع الموجود مما لا وجود له ، تتعلّق به وتسكن إليه ؛ وعلى ذلك لا بد في كل شيء – مع المعاني التي له في الحق – من المعاني التي له في الخيال ؛ وهاهنا موضعُ الأدب والبيان في طبيعة النفس الانسانية ؛ فكلاهما طبيعيٌّ فيها كما ترى

وإذا قيل الأدب ، فاعلم أنه لا بد معه من البيان ؛ لأن النفس

تخلق فتصوّر فتحسن الصورة؛ وإنما يكون تمام التركيب – في معرضه وجمال صورته ودقة لمحاته، بل ينزل البيانُ من المعنى الذي يلبسه منزلة النضج من الثمرة الحلوة، إذا كانت الثمرةُ وحدها قبل النضج شيئاً مسمى أو متميزاً بنفسه، فلن تكون بغير النضج شيئاً تاماً ولا صحيحاً، وما بدٌّ من أن تستوفى كمالَ عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها

وهذه مسألة كيفما تناولتها فهي هي حتى تمضيها على هذا الوجه الذي رأيتَ في الثمرة ونضجها؛ فإن البيانَ صناعةُ الجمال في شيء جماله هو من فائدته، وفائدته من جماله؛ فاذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره، وعاد باباً من الاستعمال بعد أن كان باباً من التأثير؛ وصار الفرقُ بين حالَيْه كالفرق بين الفاكهة إذ هي بابٌ من النبات، وبين الفاكهة إذ هي بابٌ من الخمر. ولهذا كان الأصلُ في الأدب البيانَ والأسلوبَ في جميع لغات الفكر الانساني، لأنه كذلك في طبيعة النفس الانسانية

فالغرضُ الأول للأدب المبين أن يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول وإلى مجاز الحقيقة، وأن يلقى الأسرارَ في الأمور المكشوفة بما يتخيّل فيها، ويردَّ القليلَ من الحياة كثيراً وافياً بما يضاعفُ من معانيه، ويتركَ الماضيَ منها ثابتاً قاراً بما يخلّد من وصفه، ويجعلَ المؤلم منها لذاً خفيفاً بما يبثُّ فيه من العاطفة، والمملولَ ممتعاً حلواً بما يكشف فيه من الجمال والحكمة. ومَدارُ ذلك كلّه على إبتاء النفس لذةَ المجهول، التي هي في نفسها لذّةٌ مجهولة أيضاً؛ فإن هذه النفس طُلَعةٌ متقلّبة، لا تبتغي مجهولاً صرْفاً ولا معلوماً صرفاً، كأنها مُدْرِكة بفطرتها أنْ ليس في الكون صريحٌ مُطْلقٌ ولا خفيٌّ مطلق؛ وإنما تبتغي حالةً ملائمة بين هذين، يثور فيها قَلَقٌ أو يسكن منها قلق

وأشواقُ النفس هي مادة الأدب؛ فليس يكون أدباً إلا إذا وَضَعَ المعنى في الحياة التي ليس لها معنى، أو كان متصلاً بسرِّ هذه الحياة فيكشفُ عنه أو يومئ إليه من قريب، أو غيَّر للنفس هذه الحياةَ تغييراً يجيء طباقاً لغرضها وأشواقها؛ فانه كما يَرْحَل الانسانُ من جوّ إلى جوّ غيره، ينقله الأدبُ من حياته التي لا تختلفُ إلى حياةٍ أخرى، فيها شعورُها ولذّتها وإن لم يكن لها مكانٌ ولا زمان؛ حياةٍ كمَلتْ فيها أشواقُ النفس، لأن فيها اللذّاتِ والآلامَ بغير ضرورات ولا تكاليف. ولعمري ما جاءت الجنةُ والنارُ في الأديان عَبَثاً؛ فان خالق النفس بما ركّبه فيها من العجائب، لا يحكُمُ العقلُ أنه قد أتمَّ خَلْقها إلا بخلق الجنة والنار معها؛ إذ هما الصورتان الدائمتان المتكافئتان لأشواقها الخالدة إن هي استقامت مسدَّدة أو انعكست حائلة

وقد صحَّ عندي أن النفسَ لا تتحقق من حريتها ولا تنطلق انطلاقها الخالدة فتُحسّ وحدةَ الشعور ووحدةَ الكمال الأسمى – إلا في ساعاتٍ وفترات تنسلُّ فيها من زمنها وعيشها ونقائضها واضطرابها إلى (منطقة حياد) خارجةٍ وراء الزمان والمكان؛ فاذا هبطتها النفس، فكأنما انتقلتْ إلى الجنة واسترْوحت الخلد؛ وهذه المنطقة السحرية لا تكون إلا في أربعة: حبيبٍ فاتنٍ ممشوقٍ أُعطِيَ قوةَ سِحْر النفس، فهي تنسى به؛ وصديقٍ محبوب وفيٍّ أوتيَ قوةَ جذبِ النفس، فهي تنسى عنده؛ وقطعةٍ أدبية آخذة، فهي ساحرةٌ كالحبيب أو جاذبةٌ كالصديق؛ ومنظرٍ فنيٍّ رائع، ففيه من كل شيء شيء

وهذه كلُّها تُنسى المرء زمنَه مدةً تطول وتقصر؛ وذلك فيها دليلٌ على أن النفس الانسانية تُصيب منها أساليبَ روحية لاتصالها هنيهةً بالروح الأزليِّ في لحظاتٍ من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية. ومن ثم نستطيع أن نقرِّر أن أساسَ الفنِّ على الاطلاق هو ثورةُ الخالدِ في الانسان على الفاني فيه؛ وأن تصويرَ هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير – هو معنى الأدب وأسلوبه

ثم إن الاتّساقَ والخيرَ والحقَّ والجمال – وهي التي تجعل للحياة الانسانية أسرارَها – أمورٌ غير طبيعيةٍ في عالم يقوم على الاضطراب والأثَرة والنزاع والشهوات؛ فمن ذلك يأتي الشاعرُ والأديب وذو الفن علاجاً من حكمة الحياة للحياة، فيبدعون لتلك الصفات الانسانية الجميلة عالمَها الذي تكون طبيعيةً فيه، وهو عالمٌ أركانه الاتساقُ في المعاني التي يجري فيها؛ والجمالُ في التعبير الذي يتأدّى به؛ والحقُّ في الفكر الذي يقوم عليه؛ والخيرُ في الغرض الذي يُساق له؛ ويكون في الأدب من النقص والكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة، ولا معيارَ أدقُّ منها إن ذهبتَ تعتبره بالنظر والرأي؛ ففي عمل الأديب تخرجُ الحقيقةُ مضافاً إليها الفن، ويجيء التعبيرُ مَزيداً فيه الجمال، وتتمثّل الطبيعةُ الجامدةُ خارجةً من نفسٍ حيّة، ويظهر الكلامُ وفيه رقّةُ حياةِ القلب وحرارتُها وشعورُها وانتظامها ودقّتُها الموسيقيّ؛ وتلبس الشهواتُ الانسانيةُ شكلها المهذّب لتكون بسببٍ من تقرير المثَل الأعلى، الذي هو السرُّ في ثورة

الخالدِ من الانسان على الفانى ، والذى هو الغايةُ الأخيرة من الأدب والفنّ معاً ؛ وبهـذا يَهَبُ لك الأدب تلك القوّةَ الغامضة ، التى تتسع بك حتى تشعرَ بالدنيا وأحداثها مارّةً من خلال نفسك ، وتحسّ الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتهـا . وذلك سرُّ الأديب العبقرىّ ؛ فانه لا يرى الرأى بالاعتقاب[1] والاجتهاد كما يراه الناس ، وإنما يحسّ به ؛ فلا يقع له رأيه بالفكر ، بل يُلْهَمه إلهاماً ؛ وليس يُؤاتيه الالهام إلا من كون الاشياء تمرّ فيه بمعانيها وتَعْبُره كما تعبر السفن النهر ، فيحسّ أثرها فيه فَيلهم ما يُلهم ، ويحسبه الناس نافذاً بفكره من خلال الكون ، على حين أن حقائق الكون هى النافذةُ من خلاله

ولو أردتَ أن تعرّف الأديبَ من هو ، لما وجدت أجمع ولا أدقّ فى معناه من أن تسمّيه الانسان الكونىّ ، وغيره هو الانسانُ فقط ؛ ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الأشياء ومعانيها ، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها ؛ إذ كانت فيه مع خاصية الانسان خاصيةُ الكون الشامل . فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها ، وتدلُّ السماء بما فى صناعته من الوحى والأسرار أنه كذلك منها ، وتبرهنُ الحياةُ بفلسفته وآرائه أنه هو أيضاً منها ، وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذى لاحدّ له ، والاتساع الذى كلُّ آخر فيه لشىء ، أوّلٌ فيه لشىء

وهو انسان يَدُلّه الجمالُ على نفسه ليدلّ غيرَه عليه ، وبذلك زيد على معناه معنى ، وأُضيفَ إليه فى إحساسه قوّةُ إنشاء الاحساسِ فى غيره ؛ فأساسُ عمله دائماً أن يزيدَ على كل فكرةٍ صورةً لها ، ويزيدَ على كل صورةٍ فكرةً فيها ، فهو يُبدع المعانىَ للاشكال الجامدة فيوجدُ الحياةَ فيها ، ويبدع الأشكالَ للمعانى المجرّدة فيوجدها هى فى الحياة ، فكأنه خُلِقَ ليتلقى الحقيقةَ ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعورَ بجمالها الفنى . وبالأدباء والعلماء تنمو معانى الحياة كأنما أوجدتهم الحكمة لتنتقلَ بهم الدنيا من حالة إلى حالة ؛ وكأن هذا الكونَ العظيم يمرُّ فى أدمغتهم ليحقّق نفسَه

ومشاركةُ العلماء للأدباء توجبُ أن يتميز الأديبُ بالأسلوب البيانى ، إذ هو كالطابع على العمل الفنىّ ، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الانسان الموهوب الذى جاءت من طريقه ، ثم لأن الأسلوبَ هو تخصيصٌ لنوع من الذوق وطريقة من الأدراك ، كأن الجمال يقولُ بالأسلوب : إن هذا هو عملُ فلان

وفَصْلُ ما بين العالم والأديب ، أن العالِمَ فكرة ، ولكن الأديب فكرةٌ وأسلوبها ؛ فالعلماءُ هم أعمالٌ متصلة متشابهة يُشارُ إليهم جملةً واحدة ، على حين يقال فى كل أديب عبقرىّ : هذا هو ، هذا وحده . وعلمُ الأديب هو النفسُ الانسانيةُ بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ، ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودُها من كل نواحيها الأسرار

وإذا رأى الناس هـذه الانسانية تركيباً تاماً قائماً بحقائقه وأوصافه ، فالأديبُ العبقرىُّ لا يراها إلا أجزاء ، كأنما هو يشهد خَلقها وتركيبها ؛ وكأنما أمرُها فى (معمله) ، أو كأن الله — سبحانه — دعاه ليرى فيها رأيه . . . . وبذلك يجىء النابغُ من أدب العباقرة وبعضُه كالمُقْترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الانسانية ، وبعضه كالموافقة واقرار الحكمة ، وأساسُه على كل هذه الأحوال النقدُ ثم النقد ، ولا شىء غير النقد ، كأن القوةَ الأزليةَ تقول لهذا المُلْهَم : أنت كلمتى ، فقُل كلمتك . . . .

* * *

وترى الجمالَ حيث أصبته شيئاً واحداً لا يكبر ولا يصغر ، ولكن الحسّ به يكبر فى أناس ويصغر فى أناس ؛ وهاهنا يتألّه الأدب ، فهو خالقُ الجمال فى الذهن ، والممكنُ للأسباب المعينة على إدراكه وتبين صفاته ومعانيه ، وهو الذى يقدر لهذا العالم قيمته الانسانيةَ بإضافة الصُّور الفكرية الجميلة اليه ، ومحاولته إظهار النظام المجهول فى متناقضات النفس البشرية ، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحطّ المجتمعِ من غِشاوة الفِطرةِ ، وصَوْلةِ الغريزة ، وغَرارةِ الطبع الحيوانى

وإذا كان الأمرُ فى الأدب على ذلك ، فباضطرارٍ أن تتهذّب فيه الحياةُ وتتأدب ، وأن يكون تَسَلُّطُه على بواعث النفس دُرْبةً لاصلاحها وإقامتها ، لا لأفسادها والانحراف بها إلى الزيغ والضلالة ؛ وباضطرارٍ أن يكون الأديبُ مكلفاً تصحيح النفس الانسانية ، ونفىَ التزوير عنها ، واخلاصها مما يلتبسُ بها على تتابع الضرورات ؛ ثم تصحيح الفكرة الانسانية فى الوجود ، ونفى الوثنية عن هذه الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائماً إلى فوق !

وإنما يكلف الأديبُ ذلك لأنه مستبصرٌ من خصائصه التمييزُ

(١) الاعتقاب إطالة النظر وكد الفكر

وتقدم النظر وتسقُّط الالهام ، ولأن الأصلَ في عمله الفنيّ ألا يبحث في الشيء نفسه ، ولكن في البديع منه ؛ وألا ينظر إلى وجوده ، بل إلى سرّه ، ولا يُعنيَ بتركيبه ، بل بالجمال في تركيبه ، ولأن مادة عمله أحوالُ الناس ، وأخلاقُهم ، وألوان معايشهم ، وأحلامُهم ، ومذاهب أخيلتهم وأفكارهم في معنى الفن ، وتفاوت إحساسهم به ، وأسباب مغاويهم ومَراشدهم ، يُسدِّد على كل ذلك رأيه ، ويُجيل فيه نظره ، ويخلطه في نفسه ، ويُنْفِذُه من حواسه ، كأنما له في السرائر القبضُ والبسط ، وكأنه وليَ الحكم على الجزء الخفيّ في الانسان ، يقوم على سياسته وتدبيره ، ويهديه إلى المثل الأعلى . وهل يُخْلَق العبقريُّ إلا كالبرهان من الله لعباده على أن فيهم من يَقدر على الذي هو أكملُ والذي هو أبدع ، حتى لا ييأس العقل الانساني ولا ينخذل فيستمرّ دائباً في طلب الكمال والابداع اللذين لانهاية لها ؟

فالأديب يُشرفُ على هذه الدنيا من بصيرته ، فاذا وقائعُ الحياة في حذْوٍ واحد من النزاع والتناقض ؛ وإذا هي دائبةٌ في مَحْق الشخصية الانسانية ، تاركةٌ كل حيّ من الناس كأنه شخصٌ قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ؛ فاذا تلجلج ذلك في نفس الأديب اتجهت هذه النفسُ العاليةُ إلى أن تحفظ للدنيا حقائق الضمير والانسانية والايمان والفضيلة ، وقامت حارسةً على ما ضيع الناس ، وسُخرتْ في ذلك تسخيراً لا تملك معه أن تأبيَ منه ولا يستوى لها أن تغمض فيه ، ونقلت الانسانيةُ كلَّها ووُضعت على مجاز طريقها أين توجهتْ فتأكّد الأمرُ فيها ، ووُصِلَ بها ، وعلمت أنها من خالصةِ الله ، وأن رسالتها للعالم هي تقريرُ الحب للمتعادين ، وبسطُ الرحمة للمتنازعين ؛ وأن تجمعَ الكلَّ على الجمال وهو لا يختلف في لذته ؛ وتصلَ بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرّق في موعظتها ؛ وتُشعرَهم الحكمة وهي لا تتنازعُ في مناحيها . فالأدبُ من هذه الناحية يشبه الدين ، كلاهما يُعينُ الانسانيةَ على الاستمرار في عملها ، وكلاهما قريبٌ من قريب ؛ غير أن الدين يعرضُ للحالات النفسية ليأمر وينهى ، والأدب يعرض لها ليجمع ويقابل ، والدين يوجه الانسان إلى ربه ، والأدب يوجهه إلى نفسه ، وذلك وحيُ الله إلى الملَك إلى نبيٍّ مختار ، وهذا وحي الله إلى البصيرة إلى إنسان مختار

فان لم يكن للأديب مثلٌ أعلى يجهدُ في تحقيقه ويعمل في سبيله ، فهو أديبُ حالةٍ من الحالات ، لا أديبُ عصر ولا أديبُ جيل ؛ وبذلك وحده كان أهل المثل الأعلى في كل عصرٍ هم الأرقام الانسانية التي يُلقيها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته . .

ولا يخدعنَّك عن هذا أن ترى بعضَ العبقريين لا يُؤْتَى في أدبه أو أكثره إلا إلى الرذائل ، يتغلغلُ فيها ، ويتملّأ بها ، ويكون منها على ماليس عليه أحدٌ إلا السِّفْلة والحِشْوة من طغام الناس ورعاعهم ؛ فان هذا وأضرابه مسخرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة مافيها من النهي ، ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة ؛ وكثيراً ما تكون الموعظةُ برذائلهم أقوى وأشدّ تأثيراً مما هي في الفضائل ؛ بل هم عندي كبعض الأحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهيُ أقوى مما يأمر الأمر ، على نحو ما يكون من قراءتك موعظةَ الفضيلة الأدبية التي تأمرك أن تكون عفيفاً طاهراً ؛ ثم ما يكون من رؤيتك الفاجرَ المبتلَى المشوَّهَ المتحطِّم الذي ينهاك بصورته أن تكون مثله . ولهذه الحقيقة القوية في أثرها — حقيقةِ الأمر بالنهي — يعمد النوابغ في بعض أدبهم إلى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها ، بعكس نتيجة الموقف الذي يصورونه أو الاحالة في الحادثة التي يصفونها ؛ فينتهي الراهب التقيُّ في القصة ملحداً فاجراً ، وترتدُّ المرأة البغيُّ قديسة ، ويرجع الابن البرُّ قاتلاً مجنوناً جنونَ الدم ؛ إلى كثير مما يجري في هذا النسق ، كما تراه لأناطول فرانس ، وشكسبير وغيرها ، وما كان ذلك عن غفلة منهم ولاشرّ ، ولكنه أسلوبٌ من الفن ، يقابله أسلوبٌ من الخلق ، ليبدع أسلوباً من التأثير . وكل ذلك شاذ معدود ينبغي أن ينحصرِ ولايتعدى ، لأنه وصفٌ لأحوال دقيقةٍ طارئةٍ على النفس ، لا تعبيرٌ عن حقائق ثابتةٍ مستقرةٍ فيها

والشرط في العبقري الذي تلك صفته وذلك أدبه ، أن يعلوَ بالرذيلة . . . في أسلوبه ومعانيه ، آخذاً بغاية الصنعة ، متناهياً في حسن العبارة ؛ حتى يصبح وكأن الرّذائلَ هي اختارت منه مفسرَها العبقريَّ الشاذَّ الذي يكون في سموِّ فنه البياني هو وحده ، الطَّرفَ المقابلَ لسموّ العبارة عن الفضيلة ؛ فيصنع الالهامُ في هذا وفي هذا صنعه الفنيّ بطريقةٍ بديعةِ التأثير ، أصلها في أديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيه ، وفي أديب الرذيلة ما يقوده ويندفع إليه ؛ كأن منهما إنساناً صار ملكا يكتب ، وإنساناً عاد حيواناً يكتب . . .

وإذا أنت ميلت بين رذيلة الأديب العبقري في فنه ، ورذيلة

الأديبِ الفسْل الذى يتشبه به — فى التأليف والرأى والمتابعة والمذهب — رأيت الواحدةَ من الأخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف: هذا دموعه ألمه، وذاك دموعه ألمه وشعره. وفى كتابة هذه الطبقة من العبقريين خاصةً يتحقق لك أن الأسلوب هو أساس الفن الأدبى، وأن اللذة به هى علامة الحياة فيه، إذ لا ترى غير قطعة أدبية فنية، شاهدُها من نفسها على أنها بأسلوبها ليست فى الحقيقة إلا نكتةً نفسية لاهتياج البواعث فى نفوس قرائها، وأنها على ذلك هى أيضاً مسئلةٌ من مسائل الانسانية مطروحةٌ للنظر والحل، بما فيها من جمال الفن، ودقائق التحليل

***

واللذةُ بالأدب غير التلهى به واتخاذه للعبَث والبطَالة فيجىء موضوعاً على ذلك فيخرج إلى أن يكون مَلْهاة وسُخفاً ومَضْيَعَة؛ فان اللذة به آتية من جمال أسلوبه وبلاغة معانيه وتناوُله الكَون والحياة بالأساليب الشعرية التى فى النفس، وهى الأصل فى جمال الأسلوب؛ ثم هو بعد هذه اللذة منفعةٌ كلُّه كسائر ما ركب فى طبيعة الحى إذ يحس الذوقُ لذَّةَ الطعام مثلاً على أن يكون من فعلها الطبيعىّ استمراءُ التغذية لبناء الجسم وحفظِ القوة وزيادتها. أما التلهى فيجىء من سخف الأدب، وفراغ معانيه، ومؤاتاته الشهواتِ الخسيسة، والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة؛ وذلك حين لا يكون أدبَ الشعب ولا الانسانية، بل أدبَ فئة بعينها وأحوالها؛ فان أديب صناعته أو أديبَ جماعته، غيرُ أديب قومه وأديبِ عصره: أحدها إلى حدٍّ محدود من الحياة، والآخر عملٌ جامع مستمرٌّ متفنّن، لأن عمله الأدبى هو وجوده، وكل شىء فى قومه لا يبرحُ يقول له: اكتبْ. . .

ومن الأصول الاجتماعية التى لا تتخلَّف، أنه إذا كانت الدولةُ للشعب، كان الأدب أدبَ الشعب فى حياته وأفكاره ومطامحه وألوانِ عيشه، وزَخَر الأدب بذلك وتنوَّع وافتَنّ وُبنى على الحياة الاجتماعية؛ فان كانت الدولةُ لغير الشعب، كان الأدبُ أدبَ الحاكمين وُبنى على النفاق والمداهنة والمبالغة الصناعية والكَذِب والتدليس، ونَضَبَ الأدب من ذلك وقلّ وتكرَّر من صورةٍ واحدة؛ وفى الأولى يتسع الأديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارها فى كلٍّ من حَوْله إلى الاحساس بالكون ومَجَاليه وأسراره فى كل ما حَوْله. أما الثانية فلا يُحس فيها إلا أحوال نفسه وخَليطه، فيصبح أدبه أشبهَ بمسافةٍ محدودةٍ من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويجىءُ حتى يملَّ ذهابَه ومجيئَه

والعَجَب الذى لم يتنبَّه له أحدٌ إلى اليوم من كل من درسوا الأدبَ العربى قديماً وحديثاً، أنك لا تجد تقررَ المعنى الفلسفى الاجتماعىّ للأدب فى أسمى معانيه إلا فى اللغة العربية وحدها، ولم يغفل عنه مع ذلك إلا أهل هذه اللغة وحدهم!

فاذا أردتَ الأدبَ الذى يقررّ الأسلوبَ شرطاً فيه، ويأتى بقوّة اللغة صورةً لقوة الطباع، وبعظَمة الأداء صورة لعظمة الأخلاق، وبرقّة البيان صورة لرقة النفس، وبدقّته المتناهية فى العمق صورةً لدقّة النظرة إلى الحياة؛ ويُريك أن الكلامَ أمةٌ من الألفاظ عاملةٌ فى حياة أمةٍ من الناس، ضابطةٌ لها المقاييسَ التاريخية، مُحْكِمَةٌ لها الأوضاع الانسانية، مشترطةٌ فيها المثلَ الأعلى، حاملةٌ لها النور الالٓهىّ على الأرض . . .

وإذا أردتَ الأدبَ الذى يُنشئُ الأمة إنشاءً سامياً، ويدفعها إلى المعالى دفعاً، ويردُّها عن سَفَاسِف الحياة، ويوجّهها بدقّة الابرة المغناطيسية إلى الآفاق الواسعة، ويسدّدها فى أغراضها التاريخية العالية تسديدَ القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرَّر المحكم، ويملأ سرائرها يقيناً ونفوسَها حزماً وأبصارَها نظراً وعقولَها حكمة، وينفُذُ بها من مظاهر الكون إلى أسرار الألوهية . . .

. . . إذا أردت الأدب على كل هذه الوجوه من الاعتبار — وجدت القرآنَ الحكيم قد وَضَعَ الأصلَ الحىَّ فى ذلك كله. وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدَّساً، وفَرَضَ هذا التقديس عقيدة، واعتَبَرَ هذه العقيدةَ ثابتةً لن تتغير؛ ومع ذلك كله لم يتنبه له الأدباء ولم يحذُوا بالأدب حَذْوه، وحسبوه ديناً فقط، وذهبوا بأدبهم إلى العبث والمجون والنفاق؛ كأنه ليس منهم إلا بقايا تاريخ محتَضَر بالعلل القاتلة، ذاهبٍ إلى الفناء الحتم!

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه، لا يُستخرج منه للأدب إلا تعريفٌ واحد هو هذا: إن الأدب هو السموُّ بضمير الأمة

ولا يستخرج منه للأديب إلا تعريفٌ واحد هو هذا: إن الأديب هو مَن كان لأمته ولُغتها فى مواهب قلمه لقبٌ من ألقاب التاريخ. ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

هُمـــا

للأستاذ أحمد أمين

« هما » انسانان متباينان ، لايجمعهما إلا أنى عرفتهما

أما « هو » الأول ، فنظيف الثوب فى غير أناقة ، لايعنيه من ثيابه إلا أنه لا يتأذى بقذارتها ، ولايتأذى من أنها زاهية تستلفت الأنظار – قد طبع على ما يود ، فلا هو جميل يقيد النظر ، ويغترق البصر ؛ ولا هو قبيح الشكل سمج المنظر ، تتفاداه العيون ، ويلفظه الطرف ، لو عهد اليه أن يخلق نفسه ما اختار غير صورته وشكله ، لأنه يأبى تكاليف الجمال وتكاليف القبح

كثير التفكير فى نفسه ، كأن الله لم يخلق فى العالم إلا هى ، وإن كان قد خلق أشياء فنفسه مركزها ، دائم المحاسبة لنفسه على ما صدر منها للناس ، ودائم المحاسبة للناس على ما صدر منهم لنفسه ، ففى نفسه محكمة منعقدة باستمرار ، تطول فيها المرافعة ، ويشتد فيها الخصام ، وتكثر منها الأحكام ، والنقض والابرام – حدثنى أنه إذا جلس فى مجلس استعرض بعد الفراغ منه كل ما دار فيه على الترتيب ، كأن ذهنه « شريط ماركونى » ثم وقف عند كل كلمة صدرت منه يفحصها ، هل مست شعور أحد ، هل ظلمت أحداً ، هل جرحت كرامة أحد ، ألم يكن غيرها خيراً منها ، أما كان يحسن أن يقال فى مثل هذا الموقف غير هذا الكلام ؟ ووقف عند كل كلمة قالها غيره يحللها ، ماذا يريد منها ، لقد جرح احساسى بها ، لقد كان يلتفت إلىّ عند قولها ، وما سبب ذلك والعلاقة بينى وبينه على خير ما يكون صديق لصديقه ، لابد أن يكون قد تأثر من كذا وغضب من كذا ، ولكن إن كان هذا فلا حق له لأنه لم يفهم قصدى ولم يتبين غرضى . فاذا أتم ذلك وأوى إلى فراشه بدأ يعيد الشريط من جديد ، ويعلق على الحوادث تعليقات جديدة ، ويفسرها تفسيراً جديداً ، حتى يدركه النوم ، وقلّ ألا يحلم بما حدث ، وقلّ ألا تأتيه الرؤيا بتفسيرات جديدة وتعليقات جديدة

من أجل هذا يفر من الناس ، ويفر من المجتمعات ، حتى لا تكثر الأشرطة فيكثر عرضها ، والتعليق عليها ، فقل أن أجاب دعوة مع كثرة ما وجه اليه من دعوات ، لأنه مع هذا ليس ثقيل الظل ولا جامد النسيم ، فاذا اضطر إلى دعوة ذهب اليها كارهاً ، وحسب حساب كل كلمة يتكلمها ، وكل حركة يتحركها قبل أن يقدم عليها ، تفضيلا للحساب العاجل على الحساب الآجل ، فقلّ أن يأخذ الناس عليه غلطة مع كثرة ما يتوهمه هو من غلطات

أداه التفكير الكثير فى نفسه إلى أن يكون عميق التفكير فى كل ما يعرض عليه ، فاذا عرض أمر قلبه على جميع وجوهه ، وغاص فى نواحيه ، واستخرج منها أدق الأفكار وأصعبها وأعقدها ، وشغف بالعلم فكان دائب الدرس ، كثير الاطلاع ، تثقف بالثقافة الانجليزية فهو يتكلمها ويقرؤها كأحد أبنائها ، وسمع بعمق التفكير الألمانى فعكف على اللغة الألمانية حتى حذقها ، وحدثه الأدباء بالأدب الفرنسى وما فيه من دقة فى تحليل العواطف واجادة الوصف ، فدرس اللغة الفرنسية حتى أجادها ، وتضلع من آداب اللغات الثلاث ، وعرف أشهر ما كتب فيها ، فاذا حدثك فى أية ناحية منها أبان لك عن علم واسع ، ومعرفة دقيقة هذا إلى لغته العربية ومعرفته بها كأنه متخصص فيها – ثم هو بعدُ لا يرضى عن نفسه ، فهو دائم الدرس ، دائب العمل ، كلما قطع شوطاً طمح إلى ما هو أرقى منه ؛ فكأنه ومطامحه كالفرس وظله يجرى دائماً ليسبقه ؛ وهيهات أن يلحقه

وهو مع كل علومه وكل لغاته وكل عمقه خامل مجهول ، لا يعرف حقيقته إلا خلصاؤه ، إن جلس مع غيرهم فهى جهول لا يشاركهم فى جدل ، ولا يفضى اليهم بحديث ، يعرف مواضع السخف من قولهم ، ومواضع النقص فى تفكيرهم ، ويتظاهر بأنه لا يعى ما يقولون ، ولا يرقى إلى ما يفكرون ويجادلون ، يتغابى وهو الذكى ، ويتعايى وهو الفصيح

لا يعبأ بالمال إلا بمقدار ما يعيشه عيشة نظيفة فى غير ما ترف ولا سرف . عرضت عليه يوماً « وظيفة » يكاد ينال منها ضعف مرتبه فرفضها فى غير تردد لأنه يرى أنه لا يصلح لها ولا تصلح له ، ولا تتفق ونفسه ، ولا يتقنها اتقان عمله الذى يقوم به

ثم هو – غالباً – لا يحب رؤساءه ولا يحبه رؤساؤه ، فهو لا يحبهم لأنه يتطلب فيهم كمالا لا تسمح به الدنيا إلا نادراً ،

ويقيس الكمال بمقياس محدود معين ، مع أن للكمال مناحى مختلفة ، وقد يُتسامح فى نقص يستره كمال ، ويُغتفر ضعفٌ تسنده قوة ، ولكنه فى تقديره يجسم النقص ، ويكبر الضعف ، ويريد فى رئيسه الكمال صرفاً ، والقوة خالصة ، فكأنه يريده نبياً أو إلهاً ، وأنى له بذلك ؟ فهو فى نقد لهم مستمر ، وتجريح دائم — وأما هم فيكرهونه لأنه حنبلى فى تصرفه — متزمت فى خلقه ، صريح لا يلطف صراحته بلباقة ، شديد لا يمزج شدته برقة ، التصرف عنده كالخط إما أن يكون مستقيماً أو أعوج ولا وسط بينهما ، لا يأتمر بأمر رئيسه ولا ينتهى بنهيه متى خالف قانوناً — والقانون عنده هو القانون الحرفى الذى لا يحتمل تفسيراً ولا تأويلاً — من أجل ذلك تعاقب عليه رؤساء يختلفون وتنقل من مصلحة إلى مصلحة والنتيجة واحدة دائماً فى نظرهم اليه ونظره اليهم — حتى لقد كان رئيسه يوماً ما أقرب الناس اليه وأعرفهم به ، ورجوت السعادة له أيام رياسته ، فما لبثت أن رأيت الصداقة استحالت إلى فتور فكراهية ، ثم كان أعدى له ممن لم يكن يعرفه

* * *

أما « هو » الآخر فجميل الصورة ، ظريف الهيئة ، حسن الحلية ، ممتلئ البدن ، ريان الجسم ، واسع البطن ، أنيق الملبس إلى آخر حد الأناقة ، دقيق الذوق فى تناسب الألوان ، وتناسق الأشكال ، حتى يعد حجة فيما يلبس وما لا يلبس ، وما يتناسب وما لا يتناسب ، لأنه خبير بأحدث الأزياء بل هو فيها مخترع فنان ، يحدثك حديثاً مستفيضاً عن خير الخياطين ومزاياهم وعيوبهم ، ومواضع الاجادة والعيب فيهم

وشىء آخر يجيد ذوقه ، ويجيد التحدث فيه ، ويجيد وصفه ويجيد نقده ، وهو الطعام والشراب ، فان أردت أن تعرف لوناً من الطعام لا يناسب لوناً أو أردت حديثاً شهياً عن طعام شهى أو عن المائدة وكيف تنظم وعن بيوت مصر وما يجيده كل بيت من الأصناف فهو فى ذلك الذى لا يبارى ، وله فوق ذلك العلم الدقيق الواسع فى صنوف الشراب ، فأيها قبل الأكل وأيها على الأكل وأيها بعد الأكل ، وأى ألوان الشراب يصح أن تجتمع وأيها لا يصح ، وأى أنواع الشراب تجيده بلاد فرنسا وأيها تجيده ألمانيا وأيها أسبانيا — بل كل هذه معلومات أولية بالنسبة اليه فعنده ما هو أدق فى ذلك وأعمق

هذه هى الدنيا وهذه هى الحياة ، وهل أنت آخذ من دنياك إلا ما طعمت وما شربت وما لبست

وله كذلك حديث طريف عن النساء وأوصافهن فهو يجيد الحديث عن سحر العيون ورشاقة القد ، ولطافة التكوين ، وبراعة الشكل ، وهيف القوام إلى آخر ما هنالك ، ثم يتبع هذا بالكلام على مغامراته وما شاهده فى حياته ، كأنه كان له فى كل خطوة حادثة نسائية ، وفى كل سفر عشق ، وفى كل مجتمع غرام — والعشق العفيف ، والهوى العذرى والحب الأفلاطونى ألفاظ جوفاء لا تدل على شىء إلا على جنون قائلها أو ريائه ، ينظر للمرأة نظر الأفعى للعصفور ، وله من وسائل الأغراء ونصب الشباك ، ورسم الخطط ما يعجز عنه القائد الماهر ، والصائد الحاذق ، فما هو إلا أن يضع عينه على فريسته حتى يخلق من الحركات والأفاعيل والأحاديث ما يستلفت النظر ، وإذا هو فى حديث جذاب مع من أحب

وإلى هنا ينتهى علمه الواسع وقدرته الفائقة

ثم ما الخلق وما الفضيلة وما الحق ؟ ليست إلا كلمات اخترعها الأقوياء ليستغلوا بها الضعفاء . ولا بأس من استعمالها أحياناً متى جلبت خيراً أو دفعت ضيراً ، ولم يخلق الله أسخف ممن يزعمون أنهم يتمسكون بمبدأ ، فليس فى الدنيا مبدأ صحيح إلا المبدأ القائل « الغاية تبرر الوسيلة » على أن تُفسَّر الغاية بغايتى لا غاية غيرى فكن « وفدياً » فى دولة الوفد ، و « شعبياً » فى دولة حزب الشعب و « حراً دستورياً » فى دولة الأحرار الدستوريين ، والعن فى كل دولة أعداءها ، وتغن بمناقبها متى كان هذا ينيلك « درجة » أو على الأقل « علاوة » ، واجعل مبدأك مشايعة الزمان ، تقبل على من أقبل عليه ، وتدبر عمن أدبر عنه — ولا تأخذ شيئاً « جداً » فما الحياة إلا لهو ولعب ، فان استطعت أن تجعلها كلها « مزحة » أو « نكتة » فافعل فهكذا خلقها الله

صادفته يوماً فى فندق فلما نزل إلى البهو استلفت نظر الناس بشكله واناقته ولباسه وأمره للخدم ونهيه ، وتحدث بصوت عال قليلاً ، فاذا ضحك يتصاعد من هنا ومن هنا ، وإذا الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً والتفات الناس يزيد شيئاً فشيئاً وإذا الحديث جذاب ، وإذا هو محور من فى المجلس وقيد أبصارهم وآذانهم

وشأنه فى « المصلحة » التى يعمل فيها شأنه فى الفندق ، كمبة القصّاد ونجمة الرواد يقضى الحاجات لتُقضى حاجاته ، وينفذ أغراض من هو أكبر منه لينفذ أغراضه من هو أصغر منه ، وهكذا اتخذ « وظيفته » تجارة ، يحسب فيها فى دقة ما يشترى وما يبيع ، وما يدخل وما يخرج ، ومقدار الرصيد ، وبكم هو دائن وبكم هو مدين

***

لعل الذى جعل من الانسان ذكراً وأنثى ، وجعل منه من يميل إلى الشعر والخيال ، ومن يميل إلى الحقيقة والواقع جعل الناس كذلك أحد هذين الرجلين ، وكل ما فى الأمر أنه قد يكون « هو » الأول صرفاً أو « هو » الثانى صرفاً ، وقد يكون خليطاً منهما ، مزيجاً بينهما – هما رجل الآخرة ورجل الدنيا ، ورجل الفلسفة ورجل المادة ، ورجل الأخلاق والمبادئ ، ورجل المصالح والمنافع ؟

أحمد أمين

مأساة قضائية شهيرة

ذكريات عن قضية دريفوس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ أسابيع قلائل توفى فى صمت وسكون ، رجل كان اسمه قبل ثلاثين عاماً يدوى فى أرجاء العالم بأسره ، ويقترن اسمه بأعظم وأشهر مأساة قضائية فى عصرنا ؛ ذلك هو الكولونل الفريد دريفوس الضابط الفرنسوى اليهودى ، الذى أثار اتهامه ومحاكمته ومحنته فى خاتمة القرن الماضى فى فرنسا أعظم ضجة ، وشغلت قضيته الأمة الفرنسية بأسرها زهاء عشرة أعوام ، وأثارت فيها من الجدل القضائى ، والشهوات والاحقاد القومية والجنسية ، والعواطف السياسية ، ما كاد يدفعها إلى معترك الحرب الأهلية والفوضى

وقد طويت صفحة قضية دريفوس منذ بعيد ، وأسدل الستار على آخر فصل من فصولها منذ ثلاثين عاماً . ولكن هذه المأساة القضائية الهائلة ، التى طبعت تاريخ العصر بطابعها القوى ، وأثرت فى كثير من نواحيه السياسية والاجتماعية ، ما زالت منذ ثلاثين عاماً تثير اهتمام البحث التاريخى والقضائى ، وتصدر عنها المؤلفات الحافلة بأقلام أكابر الكتاب والساسة ، ومنهم من عاصروها واتصلوا بحوادثها وشخصياتها . وكان آخر ما صدر عنها من المؤلفات الهامة كتاب بالألمانية حافل بالشهادات والوثائق الحاسمة ، هى مذكرات الجنرال ماكس فون شفارتزكوبن ، وهو الذى كان ملحقاً عسكرياً للسفارة الألمانية فى باريس وقت انفجار العاصفة والقبض على دريفوس (سنة ١٨٩٤) متهماً بالخيانة العليا وبيع أسرار الجيش لدولة أجنبية ؛ وكانت فرنسا بأسرها تتهم ألمانيا بأنها هى الدولة التى تحاول الوقوف على أسرار الدفاع الفرنسى ، وتتهم الملحق الحربى الألمانى بأنه هو الذى يعمل على ابتياع هذه الأسرار . ولم يكن فى وسع الجانب الألمانى أن يتكلم يومئذ وأن يفضى بما لديه لاظهار الحقيقة ؛ وكانت المأساة القضائية تسير فى طريقها ، وينزل القضاء الحربى بالضابط البرئ أقسى حكمه مستنداً إلى طائفة من الوثائق والشهادات المزورة ، وفرنسا تضطرب من أقصاها إلى أقصاها سخطاً على الخائن وعلى اليهودية التى ينتمى اليها ؛ وهناك فى الظلام رجل واحد يعرف لب الحقيقة ، ويستطيع أن ينقذ البرئ ، وأن يهتك هذه الحجب كلها بكلمة ؛ ذلك الرجل هو فون شفارتزكوبن الملحق الحربى الألمانى ، بطل المأساة الخفى ؛ ولكن هذه الكلمة لم يستطع أن يقولها ولم يسمح له بقولها يومئذ ، وقضت الرسوم والاعتبارات السياسية أن ينوء بالسر حتى مرض موته ؛ وعندئذ أفضى به إلى زوجه وأوصاها بنشر مذكراته ووثائقه ، وقام بنشرها الكاتب الألمانى برنهارد شفر تفيجر تحت العنوان الذى اختاره صاحبها لها وهو « الحقيقة عن دريفوس » (١)

ولم يك ثمة شك فيما سيقوله الرجل الذى اشترك بنفسه فى حوادث المأساة ، وعرف سرها فى المهد ؛ فقد أكد لنا شفارتزكوبن وهو على شفا القبر ، ما كشفت عنه من قبل تطورات القضية الشهيرة ، وما اضطر القضاء الأعلى أن يثبته وأن يعلنه بعد تلك الجهود والمحاولات الفادحة التى بذلها أنصار البرئ

---

(١) Die Wahrheit ueber Dreyfus : Berlin 1930

لاعادة النظر وتحقيق العدالة ؛ أكد لنا براءة دريفوس مرة أخرى ، وأوضح لنا بما يعرض من الناحية الخفية للحوادث كيف كان القضاء بعيداً عن الحقيقة ، وكيف كان المجرم الحقيقي ظاهراً غير بعيد عن يد العدالة ، ولكن يتمتع بحماية العسكرية المتعصبة المغرضة ؛ ويقدم الينا شفارتز كوبن فوق أقواله الخاصة طائفة هامة من المذكرات والوثائق الرسمية التي تبودلت بخصوص الحادث ، ومنها رسائله إلى قلم أركان الحرب الألماني

وقد أتيحت لنا منذ أعوام فرصة لدراسة قضية دريفوس من الناحيتين القضائية والتاريخية ، وكتبنا عنها بحثاً مستفيضاً في كتابنا « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » (١) وشرحنا أدوارها السياسية والقضائية المدهشة ، وبينا كيف أنها كانت أثراً بارزا من آثار « خصومة السامية » أو حركة العداء ضد اليهودية ، فالى هذا البحث نحيل القارئ ؛ ولكنا نرى أن نقدم هنا خلاصة موجزة لأهم وقائع القضية ، لابد منها لفهم ما سيجئ من البيانات والتعليقات

في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٤ قبضت السلطات العسكرية على ضابط بقسم المدفعية هو الفريد دريفوس بتهمة الخيانة العليا ، وذلك على أثر ضبط قلم التحريات السرية لوثيقة تتضمن التعريف ببعض أسرار الدفاع الفرنسي ، قيل إنها بخطه وإنه قدمها إلى سفارة أجنبية ، وقد عرفت هذه الوثيقة فيما بعد باسم « البردرو » وقدم دريفوس إلى المجلس الحربي ، وحوكم سراً ، وحكم عليه بالنفي المؤبد والتجريد (٢٣ ديسمبر سنة ٩٤) ، وكان دريفوس يؤكد بكل قواه أنه برئ من كل تهمة ؛ ولكن لم يصغ إليه أحد ، وجرت محاكمته بسرعة وتحيز ظاهر ، ونفذ فيه الحكم بصرامة ؛ وكان يؤمن ببراءته جماعة من أكابر المفكرين والساسة ويرونه ضحية الخصومة السامية ؛ وكان من بين هؤلاء السياسي شورر كستنر وكيل مجلس الشيوخ وطائفة من أعلام الكتاب مثل أميل زولا ، وإيف جيو ، وجوزف ريناخ ، وجورج كليمنصو ، وجوريس ، وكاسنياك ؛ فأثار هؤلاء دعوة شديدة ضد رجال العسكرية والقضاء الحربي ، وطالبوا باعادة النظر في القضية ؛ وبذلت أسرة دريفوس جهوداً كبيرة لانقاذه وتبيان براءته ؛ وكان الكولونيل بيكار من رجال العسكرية الذين يشكون في نزاهة القضاء الحربي ، فانتهز فرصة انتدابه لرئاسة قلم التحريات السرية ، ودرس القضية ومستنداتها المزعومة ؛ فأيقن أن دريفوس كان بريئاً وضحية واستطاع بعد البحث أن يعرف كاتب « البردرو » الحقيقي وهو ضابط يدعى « استر هازي » . ولم تلبث هذه الحقيقة أن ذاعت رغم اضطهاد زعماء العسكرية لبيكار ؛ واستغلها أنصار الاعادة ؛ فاضطرت السلطات الحربية أن تقبض على استر هازي ، وأن تحاكمه تهدئة لثورة الرأي العام ؛ ولكن المجلس الحربي قضى ببراءته ، فكانت هذه البراءة نذير فورة أشد من الأولى . وفي ١٣ يناير سنة ١٨٩٨ نشر أميل زولا في صحيفة « الاورور » خطابه المشهور « إني أتهم ! » موجهاً إلى رئيس الجمهورية ، واتهم فيه القضاء الحربي في عبارات عنيفة ملتهبة بانه انتهك قدس العدالة والقانون ، وقضى عمداً على البرئ ، واستعمل الغش والتزوير في إجراءاته ؛ فأحيل زولا على محكمة الجنايات بتهمة القذف ، وحكم عليه بالحبس عاماً وبالغرامة (٣فبراير سنة ٩٨) ولكنه فر إلى انكلترا تفادياً من تنفيذ الحكم ؛ ولم تفتر جهود أنصار الاعادة مع ذلك ؛ ولم تمض أشهر قلائل حتى اعترف الكولونل هنري وهو رئيس سابق لقلم التحريات ، بانه اشترك في صنع بعض الوثائق السرية التي قدمت كدليل على إدانة دريفوس فقبض عليه وسجن ، ولكنه انتحر في سجنه ؛ فزاد الشك في إجراءات القضاء الحربي واشتد سخط الرأي العام ؛ واضطر عندئذ وزير الحربية أن يحيل الطلب الذي قدمه الضابط البرئ باعادة النظر إلى محكمة النقض ؛ وقضت هذه بنقض الحكم (٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٩) وأحيل دريفوس إلى المجلس الحربي في رن ، واستقدم من منفاه في جزيرة الشيطان في حالة يرثى لها ؛ ولكن المجلس الحربي قضى ثانية بادانته مع الظروف المخففة وحكم بسجنه عشرة أعوام ؛ وأصدر مسيو لوبيه رئيس الجمهورية عفواً عن المحكوم عليه . ولكن الضابط البرئ وأسرته وأنصاره لم ترضهم هذه الخاتمة العرجاء ، فضاعفوا جهودهم في سبيل الاعادة ومحو كل أثر للحكم ؛ وانقسمت فرنسا عندئذ إلى شطرين ، فريق وهو الأغلبية إلى جانب الاعادة وانصاف البريء والحد من طغيان العسكرية ؛ وفريق الوطنيين يؤازر الجيش ويقاوم الاعادة ؛ واشتد

(١) يراجع كتابي المذكور ص ٥٠٤ إلى ص ٥٣٢

الجدل بين الفريقين ، واتخذ مظهراً سياسياً عنيفاً يغشى كل الحياة العامة فى فرنسا ؛ وفى أثناء ذلك وقف أنصار الاعادة على وثائق وحقائق جديدة تؤيد البراءة ، وقدم دريفوس طلباً ثانياً باعادة النظر ، ورأت الحكومة القائمة تهدئة للرأى العام أن تحيل طلبه ثانية إلى محكمة النقض ؛ فقررت المحكمة أن تنظر فيه بنفسها ، وأصدرت حكمها فى ١٢ يوليه سنة ١٩٠٦ بالغاء حكم محكمة رن وبراءة الضابط اليهودى ؛ وفى الحال أعيد دريفوس إلى فرقته ومنح وسام الشرف ، وأسدل الستار على تلك المأساة القضائية الهائلة ، وهدأت العاصفة السياسية الكبرى التى أثارتها زهاء عشرة أعوام

***

يقول الكاتب الأشهر أميل زولا فى كتابه الذى وضعه عن القضية بعنوان « الحقيقة تسير » (١) « إن فون شفارتز كوبن وحده هو الذى يستطيع أن يذيع الحقيقة الناصعة » ، وقد كان ذلك إبان اضطرام الصراع بين الحق والباطل وبين البرىء وجلاديه ؛ ولكن شفارتز كوبن كان يومئذ مرغماً على الصمت كما أسلفنا . أما اليوم فبين يدينا أقواله وشهادته الحاسمة ، وقد فاه شفارتز كوبن وهو على شفا الموت فى أواخر ديسمبر سنة ١٩١٦ بهذه الألفاظ التى حرصت زوجه على تدوينها : « أيها الفرنسيون ؛ استمعوا إلىّ : إن الفريد دريفوس برىء ، ولم يرتكب جرماً قط ؛ وكان الأمر كله دسائس وتزويراً ، إن دريفوس برىء » وفى المذكرات والوثائق التى تركها شفارتز كوبن أدلة الحقيقة الناصعة التى طالب زولا بكشفها ؛ فان « البردرو » الذى كان أساس الاتهام ، والذى نسب زوراً إلى دريفوس ، كان من صنع استر هازى وبخطه ، وكان المجرم الخائن هو استر هازى ؛ وتلك حقيقة ثبتت ابان المأساة القضائية ذاتها ؛ بيد أن شفارتز كوبن يفصل لنا علائقه بذلك الضابط المجرم ، وكيف أنه لبث فى خدمته عامين يمده بأسرار الدفاع الفرنسى ؛ ثم يقول لنا إن « البردرو » لم يصل إلى يده قط ، ولم تلتقطه مدام بستيان خادمة السفارة الألمانية من سلة الأوراق المهملة ، وتوصله إلى قلم التحريات الفرنسية ، كما هو ذائع ؛ ولكن المرجح أن استر هازى وضعه فى صندوق الخطابات الخاص بالسفارة فاستلبه شخص ثالث لم يعرف قط ؛ وهذه شهادة تهدم الرأى الحديث الذى يقول به بعض الكتاب الفرنسيين ، وهو أن شفارتز كوبن نفسه هو كاتب « البردرو » مقلداً فيه خط استر هازى وأنه ألقاه فى سلة الأوراق المهملة عمداً لكى يصل إلى قلم التحريات السرية عن يد مدام بستيان وتتم بذلك الدسيسة ؛ والواقع أن شفارتز كوبن لم يقف على أمر « البردرو » إلا بعد القبض على دريفوس والحكم عليه بعامين حيث رأى صورة الوثيقة منشورة فى جريدة « الماتان » فعرف لفوره أنها من خط استر هازى ، وأدرك فى الحال روعة الخطأ القضائى الذى ارتكب

وفى الرسائل التى تبادلها شفارتز كوبن مع الكونت منستر سفير المانيا فى باريس وقتئذ ما يدل على التأثر العميق الذى كانت تتبع به السلطات الألمانية يومئذ تطورات المأساة القضائية ؛ وقد لبث الكونت منستر نفسه مدى حين بعيداً عن فهم الحقيقة معتقداً مسؤولية شفارتز كوبن حتى أنه حمل عليه فى بعض رسائله بقسوة ، واتهمه بأن تصرفاته المريبة كانت أكبر سبب فى الحملات الصارمة التى شهرتها الصحافة الفرنسية على المانيا ، والتى اضطرت حكومة القيصر أن تسعى لدى الحكومة الفرنسية لوقف هذه الحملات ؛ وقد وقف الكونت منستر بعد ذلك على طرف من الحقيقة ؛ وكان أركان الحرب الألمانى يعرفها منذ الساعة الأولى ، ويعرفها القيصر أيضاً . وكان القيصر يعرف ويثق بأن السفارة الألمانية فى باريس لم تتصل بدريفوس قط ؛ ولما صرح له الكونت منستر حين مقابلته بأنه لا يشك لحظة فى براءة دريفوس ، أجابه القيصر بأنه لا يشك فيها كذلك ؛ ونجد تفصيل المحادثات والتقارير الرسمية الألمانية المتعلقة بقضية دريفوس فى المجلدين التاسع والثالث عشر من مجموعة الوثائق الرسمية التى أصدرتها المانيا عن تاريخ ما قبل الحرب . هذا وفى مذكرات الجنرال فون شفارتز كوبن كثير من الوثائق والتفاصيل التى تلقى أكبر ضوء على حقائق المأساة القضائية الكبرى ، وتعرضها فى كثير من نواحيها عرضاً جديداً مؤثراً

ولقد كانت فورة الخصومة السامية التى بعثت قضية دريفوس ، ضربة شديدة لليهودية ، استنفدت كثيراً من مواردها

(١) La vérité en marche

وقواها ؛ ولـكنها كانت لها نذير الخطر والـكفاح ؛ فقد لبثت اليهودية مدى حين آمنة مطمئنة فى ظل الديموقراطية الظافرة ؛ ولـكنها أفاقت مذعورة من هذه الدعة الظاهرة ، ونهضت تكافح طغيان القومية والعسكرية والـكنيسة معاً ؛ وكانت هذه اليقظة اليهودية وقود الحركة الصهيونيـة التى أذكى تيودور هرتسل الـكاتب اليهودى جذوتها . وكان هرتسل يشهد مأساة دريفوس وتطوراتها منذ البداية كمراسل لجريدة « نويه فرايه بريسه » النمسوية (١) ، ويصور حوادث المأساة بقلمه الملتهب تصويراً قوياً مؤثراً يثير روح الـكفاح والمقاومة فى الملايين من بنى جنسه ؛ واستطاعت اليهودية غير بعيد أن تستجمع قواها ؛ وغدا هرتسل روح الحركة الجديدة التى انتهت بتنظيم الصهيونية السياسية ؛ ثم الفت اليهودية فرصتها أثناء الحرب الـكبرى ، واتجهت صوب فلسطين ، وما زالت حتى ظفرت ببغيتها من الحلول بأرض الميعاد والاحتشاد فيها وتحقيق حلمها القديم بالعود إلى أرض سليمان

محمد عبد الله عنان

(١) Die Neue Freie Presse (الصحافة الجديدة الحرة) وهى أقدم الصحف النمسوية وأكبرها

وقفـــة بالعقيق !

للأستاذ على الطنطاوى

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا ... من دموع بوقفة فى العقيق
مائل بين أربع ماثلات ... ينزع الشوق من فؤاد علوق
« البحترى »

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

وأرى عروةَ وقد أقبل من سفره ، فدخل القصر ، وحار الناس كيف ينعون إليه محمداً ، حتى جاء عيسى بن طلحة فدخل عليه ، فقال عروة لبعض بنيه : اكشف لعمك عن رجلى ينظر إليها ، ففعل

فقال عيسى : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا أبا عبد الله ! ما أعددناك للصراع ولا للسباق ، ولقد أبقى الله لنا منك ما كنا نحتاج إليه : رأيك وعلمك

قال عروة : ما عزّانى أحد عن رجلى مثلك

قال : فانى معزيك بمحمد !

فوثب فزعاً يقول : ما له ؟

قال : قد لقى الله

فاصفرّ عروة ثم جلس يسترجع ويقول :

اللهم أخذت عضواً وتركت أعضاء ، وأخذت ابناً وتركت أبناء ، فانك إن كنت أخذت لقد أبقيت ، وإن كنت ابتليت لقد عافيت !

* * *

ويتبدل المنظر فاذا أنا أرى قصر سـعيد بن العاص الذى يقول فيه عمرو بن الوليد :

القصر فالنخل فالجمّـــاء بينهما ... أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

وأرى فيه حركة وازدحاماً ، وأرى على الوجوه سحابة من غمّ ، وعلى الجباه سطوراً من كآبة ، فأغشى القوم أسألهم وأعلم علمهم فاذا هم واجمون ، لأن سعيد بن العاص يحتضر ! وأىّ نبأ فى المدينة أروع من موت سعيد ؟ وفيه يقول الفرزدق :

ترى الغرّ الجحاجح من قريش ... إذا ما الأمر فى الحـدثان غالا
قياماً ينظرون إلى سـعيد ... كأنهمُ يرون به هـلالا

وأدخل القصر فأسمع عمراً ابنه يقول له : لو نزلت إلى المدينة !

فيقول له سعيد : يا بنى إن قومى لن يضنوا على بأن يحملونى على أعناقهم ساعة من نهار ، فاذا أنا مت فآذنهم ؛ فاذا واريتنى فانطلق إلى معاوية فانعنى له ، وانظر فى دَينى ، واعلم أنه سيعرض قضاءه فلا تفعل ، ولـكن اعرض عليه قصرى هذا ، فانى إنما اتخذته نزهة وليس بمال

وما هى إلا أن يموت فيحمله الناس من قصره حتى يدفنوه فى البقيع . ورواحل عمرو بن سعيد مناخة ، فيعزيه الناس على قبره ويودعونه ، ويمضى من ساعته إلى معاوية فيكون أول من ينعاه له . فيتوجع له معاوية ويقول : هل ترك ديناً ؟

فيقول : نعم ، فيقول معاوية : هو علىّ

فيقول : قد ظنّ ذلك وأمرنى ألا أقبله منك ، وأن أعرض عليك بعض ماله فتبتاعه ، فيكون قضاء دينه منه

فيقول : اعرض علىّ

فيقول : قصره بالعرصة

فيقول معاوية : قد أخذته بدينه

قال نوفل بن عمارة : وكان دين سعيد ثلاثة آلاف ألف درهم ، فاشترى معاوية القصر بألف ألف درهم ، والمزارع بألف ألف ، والنخيل بألف ألف درهم(١)

فيقول عمرو : هولك على أن تحملها إلى المدينة ، وتجعلها بالوافية .

فيحملها له إلى المدينة ، فيفرقها عمرو فى غرمائه ، وكان أكثرها عدات وعدها سعيد ، فيأتيه شاب بصك فيه عشرون ألف درهم بشهادة سعيد على نفسه ، وشهادة مولى له عليه ، فيرسل عمرو إلى المولى فيقرئه الصك ، فيبكى حين يقرؤه ويقول : نعم ، هذا خطه وهذه شهادتى عليه

فيقول عمرو : ومن أين لهذا الفتى عليه عشرون ألف درهم ؟ وإنما هو صعلوك من صعاليك قريش .!

فيقول المولى : أنا أخبرك : مرّ سعيد بعد عزله فاعترض له هذا الفتى ، ومشى معه حتى صار إلى منزله ، فوقف له سعيد وقال : ألك حاجة ؟

قال : لا . إلا أنى رأيتك تمشى وحدك ، فأحببت أن أصل جناحك

فقال لى سعيد : ائتنى بصحيفة ، فأتيته بهذه ، فكتب له على نفسه هذا الدين ، وقال : إنك لم تصادف عندنا شيئاً فخذ هذا ، فاذا جاءنا شئ فأتنا

فيقول عمرو : لا جرم والله لا يأخذها إلا بالوافية ، ياغلام ! أعطه إياها ، فيعطيه عشرين ألف درهم وافية

ويجيئه مولى لقريش فيقول : إنى أتيت أباك بابن مولاى (فلان) ، وقد هلك أبوه ليزوجه . فقال : ماعندى ، ولكن خذ ماشئت فى أمانتى

فيقول له عمرو : كم أخذت ؟ فيقول : عشرة آلاف

فيقبل عمرو على القوم فيقول : من رأى أعجز من هذا ؟ يقول له سعيد : خذ ماشئت فى أمانتى ، فلا يأخذ إلا عشرة آلاف ، والله لو أخذ مائة ألف لأديتها

***

ويتبدل المنظر ، فأرى العقيق قد ازدحم بالناس حتى كأنه المحشر ، وانتقلت اليه المدينة حتى لم يبق فيها كهل ولا غلام ، ذلك أن خبراً سرى فى المدينة سريان الأمل فى النفوس اليائسة ، فترك الناس ماهم فيه وأقبلوا على قصر سعيد يسمعون منه مالم يسمعوا ... وإذا ابن عائشة وهو أضن خلق الله بالغناء ، وأسوأ الناس فيه خلقاً ، ومن إذا قيل له غنّ ، قال : ألمثلى يقال هذا ؟ وإذا ابتدأ بغناء وقيل له أحسنت ، قطع الغناء مغضباً وقال : ألمثلى يقال أحسنت ؟ وإذا هو يغنى أطيب غناء وأطربه ، فلا ينتهى من صوت حتى يشرع فى آخر ، لايسكت ولا يستريح ، حتى عدّوا عليه مائة صوت ، وإذا خبره أن العقيق طمى وازداد ماؤه ، فاعتصم ابن عائشة بقصر سعيد بن العاص فملأ الماء عرصة القصر ، فصعد على قرن البئر ورآه الحسن بن الحسن ، وكان قادماً على بغلة له وخلفه غلامان أسودان كأنهما شيطانان ، فقال لهما : امضيا رويداً حتى تقفا بأصل القرن الذى عليه ابن عائشة ؛ فخرجا حتى فعلا ذلك ، ثم ناداه الحسن : كيف أصبحت يا ابن عائشة ؟ قال : بخير ! فداك أبى وأمى ، قال : انظر إلى من بجنبك ، فنظر فاذا العبدان ؛ قال : أما تعرفهما ؟ قال : بلى ، قال : فهما حران لئن لم تغنني مائة صوت لآمرنهما بطرحك فى البئر ، وهما حران لئن لم يفعلا لأقطعن أيديهما . فغنى فلم ير الناس أحسن يوماً منه

***

ثم أرى فتياناً من فتيان المدينة فيهم يونس الكاتب وجماعة ممن يغني قد خرجوا إلى وادٍ يقال له رومة من بطن العقيق ، فغنوا ، فأثار غناؤهم أهل الوادى ، فاجتمع اليهم الرجال والنساء حتى كان حولهم مثل مراح الضأن ؛ وأرى محمد بن عائشة مقبلاً معه صاحب له ، حتى يرى جماعة النساء عندهم فيأخذه الحسد ، وتحزّ فى نفسه الغيرة ، فيقول لصاحبه : كيف بك إذا فرقت هذه الجماعة ؟ فيسخر منه صاحبه ، فيهيج ابن عائشة فيأتى قصراً من قصور العقيق فيعلو سطحه ، ويلقى رداءه ، فيتكئ عليه ويغنى بشعر عبيد بن حنين :

هذا مقـــام مُطَرَّدٍ ... هدمت منازله ودوره
نمت عليه عــداته ... كذباً فعاقبه أميره
ولقد قطعت الخرق بعـ ... ـد الخرق معتسفاً أسيره
حتى أتيت خليفة الر ... حمن ممهوداً سريره
حييتـــه بتحيّة ... فى مجلس حصرت صقوره

فلا ينقضى الصوت إلا والنساء كلهن تحت القصر الذى

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ١٤٤

هو عليه ، وقد تقوض مجلس يونس ولم يبق فيه أحد !

***

وأرى غلاماً خلاسـياً ، مديد القامة أحول ، قد ارتقى صخرة فى العقيق منفردة ، فاضطجع عليها ضجعة خفيفة ، ثم هب فزعاً وهو يغنى غناء ماسمع مثله السامعون ، يزعم أن الشيطان اجراه فى مسامعه وهو نائم ، وبعيد الغناء وهو يتصيد الطير بحبالة فى يده ، فيمر به شيخا مغنى مكة ابن سريج والغريض ، وقد أقبـلا على بعيرين لهما يزوران المدينة ويتعرضـان لمعروف أهلها ، ويلقيان من بها من صـديقهما ، فيسمعان ثم يستعيدان الصوت :

القصر فالنخــــل فالجماء بينهما
أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

فيميده ، وهو مشغول عنهما بصيده ، فيقبل أحدهما على صاحبه فيقول : هل سمعت كاليوم قط ؟ فيقول : لاوالله ! فيقول : فما هو رأيك ؟ فيقول : هذا غناء غلام يصيد الطير ، فـكيف بمن فى الجوبة ؟ أما أنا (فثكلته أمه) إن لم أرجع !

فـكرّا راجمين

وكان الغلام (معبد) سيد من غني صوتاً فى الحجاز !

***

ويتبدل المنظر فأرى حميدة بنت عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، وقد خطبها رجل عبشمى من أهل الشام ، فلما أراد أن يرتحل بها وحف بهما الناس يودعونهما سمعت رجلاً يغنى بشعر أبى قطيفة :

لا ليت شعرى هل تغير بعدنا — جنوبُ المصلى أم كعهدى القرائن
وهل ادؤر حول البلاط عوامر — من الحىّ أم هل بالمدينة ساكن
إذا برقت نحو الحجاز سحابة — دعا الشوق منى برقها المتطامن
ولم أتركنها رغبة عن بلادها — ولـكنه ما قدر الله كائن

فتسقط وقد أغمى عليها ، فيعالجونها كيما تفيق ، فاذا أفاقت سمعته يغنى :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا — قباء وهل زال العقيق وحاضره
وهل برحت بطحاء قبر محمد — أراهط غرّ من قريش تباكره
لهم منتهى حبى وصفو مودتى — ومحض الهوى منى وللناس سائره

فتنشت بين النساء وسقطت ميتة . . . . . .

***

. . . واضطربت الصورة وتضاءلت ، ثم توارت واختفت ، وإذا صفحة الماء بيضاء ليس فيها صورة ، وإذا المجد والجلال ، والعطر والنور ، وإذا الدور والقصور ، والأنس والحبور ؛ كل أولئك قد غطى عليه الفناء ، وابتلعه هذا السيل الدفّاع ، ثم عاد يجرى بين الآكام الجرداء ، وله خرخرة وله دردرة . . .

وإذا كل ما بقى من هذه الدنيا الواسعة ، قهوة قامت على جذوع النخل ، وبئر نصبت عليها سانية ، وجماعة قد تحلقوا يشربون الشاى ، ويطربون ، وما بهم لو حققت من طرب ؛ وإذا قصر سعيد أنقاض ماثلة ، وإذا سائر القصور تلال من الرمل الأحمر . . . . . .

وإذا المجد والجلالة والجا — ه كما يطرس السطورَ البنان !

دمشق — على الطنطاوى

عاقبـــة سليمة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

لم يتفق الناس إلى الآن على وسيلة يدفع المرء بها عنه ثقيلاً يتصدى له ، ويلح عليه بما لا يسعه أن يجيبه إليه ، فالأمر متروك إلى صدق الروية ، وسرعة الخاطر ، وحسن البديهة ، ولـكل موقف ما يقتضيه ، ويدفع إليه ويغرى به ، والذى يُلهَـمه الواحد فى موقف لا يُلهمه واحـد آخر فى الموقف عينه ؛ فاذا بدا لى أولك ما لجأ إليه « حامد » غريباً أو شاذاً أو غير لائق ، فلا تلمه ولا تنع ذلك عليه ، فان عذره أنه لم يخطر له سواه ، وأن الموقف كان يتطلب السرعة واتقاء الجدل ، فقـد كان — كما لا تعلم — فى قهوة « الحمام » — بفتح الحاء — وكانت معه « فريدة » وهى بنت عمه ، وكان بينهما من الود أكبر مما يكون فى العادة بين ذوى القربى ؛ وكانت تنطوى له على حب هادئ ، وتحس — بفطرتها الذكية — أنه يصبو إليها ، ولـكنها كانت تراه لا يصارحها بشىء ولا يبثها أمراً ، ولا يدع لفظاً أو عملاً يشى بهواه هذا ، فجنحت إلى الشك ، ثم يئست . ولما تقدم أحد أغنياء الريف يخطبها ، أغرت أباها بالتلـكؤ ، لعل حامداً يتحرك ، ولـكنه لم يفعل . فقالت لنفسها إذا لم أتزوج من أحب ، فانه لا يبقى أمامى إلا زواج المال والوجاهة . . . وهكذا حدث ، أعنى أنه لم يحدث ، وإنمـا احتفل بقبول هـذا الوجيه الريفى ، وبتقديم « الشبكة » إلى عروسه المستقبلة ، على أن يكون العقد ليلة الجلوة

ومضت أيام ، والتقى حامد بهـا خارجة من متجر كبير ، نخفت اليه وهو يهم بركوب سيارته وسألته :

« لـماذا هذه الجفوة ؟ »

فضحك وقال : « الجفوة ؟ إنمـا أفسح لمن هو أحق منى »

فتلفتت ثم قالت : « سأصرف سـيارتى وأركب معك ، فهل تقبلنى ؟ »

قال : « ليس لى خيار ، انك كهذا الهواء ، لا غنى عنه »

قالت : « أشكرك » وصعدت إلى جانبـه وأشارت إلى سائقها أن ينصرف . وسألها حامد :

« إلى أين بنا ؟ »

قالت : « إلى مكان فيه هواء ، وطعام ، فانى جائعة وحرَّى »

فمضى بها إلى قهوة الحمام على النيل ؛ فأكلا شيئاً وشرب هو قدحاً من البيرة — أو الجعة كما تسمى — وقالت له على الطعام

« لـماذا لم تهنئنى ؟ »

قال : أهنئك من اعماق قلبى ، ولـكن بأى شىء ؟ »

قالت : بخطبى — ثم انك لم تحضر — لـماذا ؟ »

قال : « آه صحيح ، مبروك ! لقد سمعت أنه غنى جداً ، ووجيه فى بلده »

قالت : « نعم ، إن غناه مضافاً إلى غناى خليق أن يساعدنى على ما يميل اليه طبعى من البذخ والترف . صحيح ، فانى لا أطيق الفقر ، ولا أستطيع أن أحيا حياة رقيقة الحال »

قال : « أعرف ذلك — أو أنا على الأصح قدرته »

فحدقت فى وجهه فقال : « نعم ، لقد انتهى كل شىء الآن فلا ضير من الصراحة ، ومن الممكن أن أكاشفك بالحقيقة ... »

فقاطعته وقالت : « هل تعنى أنك . . . . »

ولم تتمها ، فقال : « نعم ، قدرت أن لا أمل لى ، فان عمى غنى وأنا فقير ، وقد عطفه علىَّ أنى ابن أخيه »

فقالت : « ولـكنك لست بفقير ! »

قال : « أعنى نسبياً . . كل ما أكسب بعـد الجهد والعناء ستون جنيها فى الشهر . وما خير ستين لمن تنفق وحدها — وهى فتاة فى بيت أبيها — أكثر من هذا القدر ؟ »

فلم تقل شيئاً ، وفتر الحديث بعد ذلك ، وصار متقطعاً ، وإن كان حامد لم يقصر فى توجيهه إلى كل ناحية تخطر بالبال . ثم قاما ، وانهما ليتخطيان باب القهوة وإذا بفريدة تشد على ذراع حامد وتقول بصوت يكاد يكون همساً : « حامد ! هذا هو ! »

فتلفت وهو يسأل : « من ؟ » ولـكنها ذهبت تعدو إلى السيارة وفتحت الباب الخلفى وأغلقته وراءها ، وانطرحت على أرضها — لا مقعدها — فأهمل حامد السؤال والجواب ، ودخل سيارته وأدار المحرك ، ولم يفته أن يحكم ايصاد الأبواب حتى لا يفتحها أحد من الخارج ، وأسدل الستائر الخلفية فاستحال

أن يرى أحد فريدة وهي راقدة . ولم يكن حامد يعرف ممن تجرى ولا كان يدرى ما يخيفها ويدفعها إلى التخفى ، وإنما كان يدرى أنها تريد ذلك ، فعليه أن يكون عوناً لها

ومد يده إلى ناقل السرعة ، يريد أن يضعه فى المكان الأول ، وإذا برجل ضخم هائل الأنحاء ، ولكنه أنيق الثياب محبوكها يقول له :

« لحظة ! لقد رأيت فتاة تدخل هـذه السيارة ، فافتح الباب من فضلك لتخرج »

فابتسم حامد وقال : « رأيت فتاة تدخل فى هذه السيارة ؟ أواثق أنت ؟ » وبتلفت وراءه ليطمئن

فقال الرجل بلهجة جافية : « أقول لك افتح الباب »

فقال حامد : « معذرة ، ولكنك مخطىء . . . . إنى لست سائق سيارتك »

فاحتد الرجل وصاح به : « إنها . . . إنها . . . ألا تنوى أن تفتح ؟ »

وعالج الباب ، ولكنه كان موصداً من الداخل ، فأعياه فتحه ، فارتد إلى نافذة حامد وقال بصوت اجتمع له الناس :

« افتح . . . أقول لك افتح . . . أخرج هذه الفتاة »

وصار المحتشدون على الرصيف جمعاً حافلا ، وأكثرهم من العامة والنوبيين ، والصبيان ، وسائقى السيارات المختلفة ، وعلت أصواتهم بالنكات والضحك ، فزاد الرجل حماقة ، وجعل يدق الباب بجمع يده ، وتهور فوضع قدمه على سلم السيارة وهم أن يدخل رأسه من نافذتها لينظر ، فلم يبق مفر من عمل يعمله حامد ليدفعه عنه ويتخلص منه ؛ ولو غيره فى مكانه لكان الأرجح أن يلكمه ، ولكن حامد لم ير أن يتقى شراً بشر ، واكتفى بأن يطير له طربوشه عن رأسه ، فطار عقله وراءه ، وارتد عن السيارة لينقذه من التراب البليل — أو الوحل — وسر الناس هذا المنظر فضحكوا ، وقهقهوا ، واغتنمها الصبيان فرصة فاقبلوا على الطربوش يدفعونه بأرجلهم كأنه كرة ويصيحون ويصخبون ، والرجل يسبهم ويلعنهم ويحاول أن يدرك واحداً منهم ، ولكنه ثقيل وهم خفاف ، فكف ، وعاد اليه الرشد مع التعب ، ونظر فاذا السيارة قد غابت !

* * *

وقالت فريدة لحامد فى بيتها عصر يوم :

« هل تعرف لماذا دعاك عمك ؟ »

قال : « لا »

قالت : « ليسألك عما حصل فى قهوة الحمام ، وعلى بابها »

قال : « من أخبره ؟ أنت ؟ »

قالت : « بل هو »

قال : « هو ؟ »

قالت : « نعم ، ألا تعرفه ؟ الخطيب ! واتهمني بالسكر أيضاً »

قال : « اتهمك أنت ؟ ولكنك لم تذوقى شراباً سوى الماء . أنا الذى شربت بيرة »

قالت : « ولا أنت — فاهم ؟ »

قال مستغرباً : « ولا أنا ؟ ولكني شربت بيرة — ولم لا أشرب ؟ وماذا يدعونى أن أقول غير الحق ؟ »

فهزت كتفيها وقالت : « كما تشاء ! ولكنى أنذرك إذا اعترفت »

فسألها متعجباً : « تنذريننى ؟ لست فاهماً »

قالت : « يا صاحبى ، لا أستطيع أن أتزوج سكيراً — أنا هكذا — من الطراز القديم المحافظ »

فانتفض واقفاً وصاح : « ماذا تقولين ؟ »

قالت بضحك : « أليس كلامى مفهوماً ؟ »

قال : « ولكنك مخطوبة . . . . ؟ »

قالت : « كنت مخطوبة . . . أما بعد أن كشفت لى عن حبك المكتوم ، فقد اغتنمت الفرصة وقذفت بالشبكة فى وجهه »

قال : « ولكنى فقير . . . . »

قالت : « وأنا أحب الفقر . . . ليس أمتع منه ، لا تخف أن أجىء اليك بغناى الثقيل المنفر . . . والآن ألا تقبلنى ؟ »

فدنا منها وهو يقول : « لم ألثم شفتيك منذ . . . . »

فقالت : « منذ يناير سـنة ١٩٢٧ . . . دونت ذلك فى مذكراتى . . . « اليوم لثم شفتى . . . . . . »

ابراهيم عبد القادر المازنى

التطور والتقليـــــد

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

التطور والتقليد ، أو التجديد والمحافظة ، عاملان خالدان يعملان جنباً لجنب ويتنازعان كل كائن حي من فرد أو مجتمع أو نظام أو نحوه . فهما يتنازعان كل أدب حي ؛ وقد كان لـكل من الأدبين العربي والانجليزي نصيب من كليهما ، غير أنا إذا دققنا النظر رأينا أن الأدب العربي كان أوفر حظاً من التقليد أو المحافظة أو الاتباع ، بينما كان الأدب الانجليزي أوفى نصيباً من التطور والتجديد والابتداع

تطورت لغة الأدب الانجليزي وأسلوبه : فهما اليوم يخالفان ما كانا عليه في عهد شكسبير مخالفة كبيرة ، وتطورت أغراضه عامة : فصار اليوم أشدّ اتصالاً بالمجتمع أخذاً منه وتأثيراً فيه ، وتطورت أشكاله : فظهرت فيـه على التتابع المقالة الدورية والصورة والترجمة والقصة الطويلة والقصيرة

وتتابعت مذاهبه : فخلّتْ المدرسة الرومانسية التي ازدهرت في عهد اليزابث ، وكان شكسبير وسبنسر من أينع ثمراتها ؛ وكان الخيال ووقائع البطولة وحياة الملوك والأمراء والقواد وقصص الأولين وخرافاتهم مِدادَ نظمها ونثرها ؛ وتلتها المدرسة الدينية التي أطلَعتْ ملتون وبنيان اللذين كانت أمور الدين وأخبار البعث والحساب والخلود مدار كتاباتهما ؛ ثم كانت المدرسة الـكلاسية في القرن الثامن عشر فافتتن زعماؤها في الشعر أمثال درايدن وبوب ، وفي النثر أمثال أديسون وستيل ، بمحاكاة الآثار الـكلاسية القديمة من أغريقية ولاتينية في حسن الصياغة وإحكام الأسلوب ؛ ثم أعقبت هـذه مدرسة رومانـية أخرى في مستهل القرن التاسع عشر كان من أقطابها وردزورث وشلي وكيتس ، فنبذت الاهتمام بتنميق الأسلوب وأطلقت لخيالها العنان ؛ وفي أواسط ذلك القرن قامت المدرسة الواقعية تحدّ من ذلك الخيال الجامح وتربطه برباط الواقع ، وكان من رجالها تنيسون ثم هاردي .

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس الأدبية مرآة للحياة في عصرها : فمدرسة شكسبير كانت مرآة عصر الاستكشاف الجغرافي وكشف كنوز الأدب القديم ، والمخاطرات والمغامرات في الـكشف والقتال . ومدرسة ملتون الدينية كانت مرآة عصر التشدّد الديني الذي كان زعماؤه « المطهرين » ؛ والمدرسة الـكلاسية المنمقة الأسلوب كانت صدى لمجتمع القرن الثامن عشر المنمق الآداب والأقوال المتهافت على حياة المدن المزدري بمظاهر الطبيعة ؛ والمدرسة الرومانسية في مستهل القرن التاسع عشر كانت تعبيراً في عالم الأدب عما عبرت عنه الثورة الفرنسية إذ ذاك في عالم السياسة : من نزعة إلى التحرر من قيود المجتمع واغلال الفكر والعودة إلى الطبيعة ما أمكن ؛ والمدرسة الواقعية التي تلت ذلك كانت متأثرة بالاستكشافات العلمية البعيدة المدى التي شهدها القرن الماضي . وقد تتابعت هذه المدارس جيلاً بعد جيل وكانت كل واحدة منها ثورة على سابقتها تحاول إصلاحَ معايبها وتداركَ ما أهملته

هكذا تطور الأدب الانجليزي مع تطور السياسـة والعلم والدين ، وكذلك تطور الأدب العربي : فلغة الجاهلية الوعرة تلتها لغة صدر الاسلام الفحلة ، فلغة الصدر العباسي الجزلة ، ثم جاءت بعـد ذلك لغة لينة مبالغة في اللين والاناقة ، والأسلوب المرتجل المرسل تلاه الأسلوب الفني المتعمل المرصع الذي تزايد تعمّله وترصيعه شيئاً فشيئاً ؛ وتطورت أغراض الأدب وشملت من أسباب الحضارة ما لم تشمل قبـل : من شؤون الامارة ومظاهر الترف وآثار العلم والفلسفة ؛ وتطورت أشكاله : فظهرت كتب التراجم والأخبار والنقد والمقامات والرسائل المطولة . فالأدب العربي قد تطور تطوراً عاماً اتجه إلى ترقيق العبارة وتوسيع أغراض القول ، وكان مرجع هذا التطور العام هو تحضر أبناء العربية واشتغالهم بالعلوم

ولـكنه تطور عام غير محسوس كتلك التطورات السالف ذكرها في مجرى الأدب الانجليزي ؛ ومعظم أغراض الأدب العربي وصفاته توورثت جيلاً عن جيل : فأغراض الفخر والمدح والهجاء والرثاء ونحوها في الشعر ظلت أبواباً ممتازة محدّدة يتبارى الشعراء في تناولها ولا تتم لأحـدهم البراعة حتى يطرق كلاًّ منها ؛ وكتب الأخبار الأدبية والتاريخية المختلطة ظلت على

وتيرة واحـدة من أول ظهورها لا يختلف بعضها عن بعض فى طريقة البحث والسرد وتهذيب الأبواب والفصول

ولا غرو فقد كانت تحيط بالأدب العربى ظروف كلها تدعو إلى المحافظة والتقليد : فالمجتمع العربى ذاته كان مجتمعاً محافظاً لم يكد يطرأ عليه جديد من الأفكار والأنظمة بعد تشبُّعه بحضارة الأقدمين وعلومهم ، ولم يختلف عليه من الاحداث الاجتماعية والسياسية ما تترك صداها فى الأدب : فقـد كانت القصة من أولها إلى آخرها على وتيرة واحـدة : أُسَرٌ وأمراء يتوارثون الحكم ويتجاذبونه ، وأممٌ مكفوفة عن شؤون الحكم إلاَّ أن تثور ثائرتها فى الفينة بعد الفينة فتُقمع وتعود الأمور إلى وتيرتها ، وما من نزعة جديدة أو اتجاه جديد يحوّل عنان الأمور إلى غير ما هى سائرة فيه

والأدباء أنفسهم كانوا منعزلين بآدابهم عن مجتمعهم قلما يعبرون عن أمانيه أو يحاولون قيادته ، وكانوا أقرب مكاناً إلى الأمراء منهم إلى صف الشعب ، لأنهم كانوا يعتمدون على الأولين فى معاشهم

ثم إن قيام الامبراطورية الاسلامية أدى من بادئ الأمر إلى نتيجتين كانت كلتاهما ذات أثر بالغ فى الأدب العربى ، وكانتا عامِلَىْ محافظة وتقليد فيه : وهما فساد اللغة الفصحى تدريجاً ، ودخول الأعاجم فى اللسان العربى

فان فساد اللغة تدريجاً جعل الأدباء يحتذون دائماً حـذو المتقدمين من العرب الأقحاح ، ويتخذون من كلامهم نماذج وشواهد ، وصار حَسْبُ الشاعر المتأخر أن يجارى المتقدمين فى جزالة القول وإحكام النسج ليكون قد بلغ مبالغ الشاعرية ، ولا يكاد يخطر له أن يبرّز على أولئك المتقدمين ويبتكر مالم يعرفوا ، وهو وإن لم يُرِدْ إلا محاكاة أسلوبهم إلا أن ذلك مؤديه حتما إلى محاكاة أفكارهم ، ومن ثم التقليد والمحافظة

والأعاجم الذين دخلوا فى اللسان العربى انكبوا كذلك على دراسة المتقدمين وانصرفوا إلى محاكاتهم تقوعاً لعربيتهم وطلباً لأسرار اللغة وقواعدها ؛ ولا يخفى أن كثيراً من أقطاب الأدب المتأخرين كانوا من هؤلاء الأعاجم المستعربين ، فكان تأثيرهم فى الأدب تأثير محافظة وتقليد ونظر إلى القديم

وقد تزايد تبجيل كل ما ورد عن المتقدمين حتى قارب منزلة التقديس وإن قام من الأدباء من ينكره ويثبت الفضل للمتأخرين ، وكان من آثار هذا التقديس وهذه المحاكاة الدائبة ما نرى فى الأدب العربى دون غيره من الآداب من ظواهر بَتْراء ليست من التعبير عن الواقع ولا من الابتكار فى شىء : كالغزل الاستهلالى ، وذكر الابل والحداء والبيد ، ومعارضة القصائد المشهورة بمماثلاتها فى الغرض والوزن والقافية

وهناك بابان من أبواب الشعر كان مجرد بقائهما عامل تقليد ومحافظة فى الأدب : هما المدح والهجاء المتكلفان طلباً لصلات الممدوح أو لهبات خصم المهجو ، فقـد كان الشاعر مثلاً يمدح قائد الخليفة أو وزيره مادام مرضياً عنه ، فان نُـكب تقرّب الشاعرُ إلى الخليفة بذمه ؛ وقد كان أكثر المدح والهجاء من هـذا النوع المتكلف المستَمْنِح ، ومالم يُصدِرْه الشاعر عن شعور حقيقى فسبيله فيه أن يحاكى ويأخـذ ممن تقدم نَقْصاً وزيادة وتخريجاً وتوليداً ، لذلك ظلت معانى المدح والهجاء وتشبيهاتهما فى مختلف العصور تحوم حول أقوال المتقدمين ، وأثر هـــذا جلىٌّ فى جمود الأدب وتقيُّده بالقديم بدل اتجاهه إلى مناح جديدة

ثم هناك عامل كبير بين عوامل محافظة الأدب العربى ، هو اعتزال ذلك الأدب غيره من الآداب ، فالأدب كـكل كائن حى يَجْمُـد ويتضاءل إذا لم يتصل بغيره ، فتتجاوب الاحساسات والأفكار ، وقد كان من أكبر عوامل رقى الأدب الانجليزى وتطوره اتصاله بالآداب المعاصرة ورجوعه إلى الآداب الكلاسية ، أما الأدب العربى فلم يكن له مرجع عدا ماضيه ، فظل دائماً ينظر إلى الخلف بدل أن ينظر إلى الامام ، ولو استفاد من الأدب الأغريقى مثلاً لكان له تاريخ غير تاريخه المعروف

كل هذه عوامل سياسية واجتماعية وأدبية أدت إلى ضعف رغبة التجديد واستفحال نزعة التقليد فى الأدب العربى ، ومن ثم ظل طوال العصور يردد ألحاناً بعينها حتى بلغ ما يمكن أن يبلغه مِثْله من الرقى ، ثم انحدر فى طور تدهوره الطويل ، وكان من أكبر عوامل هذا التدهور تغلُّب نزعة التقليد فيه على نزعة التطور ؟

فخرى أبو السعود

الى الشباب الناهض

الأدب اللاهى ...

للأستاذ محمد روحى فيصل

قال صاحبي :

« والأدب لو تدبرتَ متعة تلهو بها النفوس ، ولذة تنشط لها العقول ، وفن جميل نقرؤه فتبرز الأحلام ، وتتدافع الخواطر ، وتخف الحياة ، ثم نخلص إلى عالم حلو لا تجثم عليه أثقال السعى والعيش ، ولا تحده قيود الجد والوقار . . »

وسكت هامساً قد انفرجت عيناه الصغيرتان تستطلعان فى وجهى أثر الحديث ، وتتبينان ما عسى أن أقول ، فراعه أن أجمع الأنف وأزوى اللحظ وأقطب ما بين الحاجبين ، ثم أقوم هادئاً إلى مكتبتى المتواضعة فأنزع منها رسالة (1) فى مائة صفحة قد ألفت النظر اليها والانعام فيها منذ سنوات ، فما أتركها إلا لنوم أو طعام ، أو شأن من شؤون الدنيا . وشرعت أتلو على صاحبي صفحة موجزة ليست جديدة فى روحها ومعناها لدى القراء ، ولكنها جديدة طريفة فى عيني ، أريد أن أذيعها اليوم فى الناس ليتدبروها وليروا الرأى الذى يرتأون فيها

فافتح إن شئت أية مجلة عربية ، فانك لاشك واجدها قد جردت كثيراً من صفحاتها للشعر ، أو للشعر المنثور ، أو لغير هذا من القطع الفنية مما يسمونه أدباً ، وما هو من الأدب الصادق الصحيح فى شيء ! والظاهر أن اعتبار الأدب وسيلة للتعابث والمفاكهة ، أو للتظرف والمنادمة ، هو علة هذا الهراء والهذيان ، وسبب قوى لكل ما يعترى الآداب والفنون من انحطاط وإسفاف ، وما يتدسس اليها من ألوان المجانة وفضول الكلام . ونحن فى هذه العجالة إنما نبغى تبيان أوجه الخطأ فى هذه النظرة اللاهية الهازلة ، والكشف عن عقمها وفسادها ، وعن نتائجها الخطيرة التى تقتل فى الأدب روح الجد والصدق والطبع

وقبل أن نخوض فى هذا الحديث الذى يستشرف له القلم اليوم نقرر أن النهضات القومية التى تحدو بالأمم فى مدارج العظمة والمجد ، وتنفث فى الشعوب معنى القوة والاستقلال ، لا تطلع عليها إلا إثر النهضات الأدبيـة التى تهتاج فيها النفوس ، ويتيقظ الشعور ، وتلتهب العواطف ، ويتحرك الكامن من الهواجس والأمانى ، فيكون الأدب بمثابة ناقوس يهيب بالركب الغافى إلى المسير والعمل . فهذه ألمانيا لم يستطع بسمارك تأليف وحدتها وضم دويلاتها بعضها إلى بعض إلا بعد أن تذوق الألمانيون آثار جوت وشيلر وهيني وليسنغ وهردر . وهذه فرنسا ما نهضت فى الثورة الكبرى إلا بعد أن شاعت بين أبنائها مؤلفات روسو وفولتير ومونتسكيو . وشبيه بذلك انجلترا فى القرن السابع عشر يوم هبت للحياة العالية وللفتح والسيادة ، فقد كان شكسبير وغير شكسبير نشروا قبل ذلك فى الأمة الانجليزية أرواحهم الحية ونفثاتهم القدسية

هذا ما تستفيده الجماعات من الأدب ؛ ولعل ما يعود منه على الفرد أجل وأرفع ، ذلك بأن الأدب باب كبير من أبواب السعادة ، وطريق ناعم ناضر تشم من جوانبه روائح الورد ، وتمتع باصرتيك فى مسالكه بأكمام الزهور ، وتتسمع فى أجوائه الى أناشيد البلابل الثائرة الخافقة . انك بالأدب تحيا حياة طيبة راضية ، تحيا حياة موسعة « مضاعفة » تحسها فى أعماق قلبك ، وفى رجع شهيقك وزفيرك !

إن العطف والالفة قوام الهيئة الانسانية ، فلا ينعم امرؤ بالانفراد ولا يهنأ بالوحدة ، وأحسب لو أن الناس جميعاً كانوا تجرة خسرة لايجوز منهم إلى جنة الله غير رجل واحد لكان هذا الرجل الصالح أنكد حظاً وأسوأ مقاماً ممن هم على النار يتقلبون ! كأنى أراه فى جنبات الفردوس وعلى ضفاف الأنهار يمشى على غير هدى وإلى غير غاية حتى تبلى قدماه ، وينظر إلى أفاويق النعيم وألوان الجمال فتبدو له كئيبة محزونة ، ثم يرتمى فى الجحيم الصالى بفضله على هذا النعيم الذى لا يرى فيه من يقول له : ما أرغده ! ويحب ذو النعمة الحسد ، ولو نزع من الصدور لاشتراه وفرقه على الناس مجاناً ليحسدوه على ما به من نعمة ! ويرتاح العاشق إلى من يتحدث اليه عن فرحة حبيبه وغضبة عذوله ... فالسعادة كما ترى لا تتم حتى تستجلى مثالها فى المرآة ،

(1) نرجو أن نطبع هذه الرسالة قريبا

والانسان لا يطرب حقاً إلا إذا رأى كلام النفس مسطوراً على قطعة من طرس.

فما دام التعاطف عماد الحياة فلن يوجد بغير تعبير، لأن الحياة لا يمكن أن تكون بغير أدب؛ تصور أمة تتملى فى نفسها شعوراً سامياً: هذا تطمح آماله إلى السيادة، وهذا يدفعه حب الخطر إلى جوب البحار ومجاهل الأرض، وذاك تترع قلبه بهجة الجمال وفتنة الحسن؛ تصور أمة تجيش فى نفوس أبنائها مختلف الميول والأهواء ملحة قاسية، مكتظة دافقة؛ أفتستطيع أن تتمثلها حريبة من الأدب؟ أما أنا فلست أعرف أمة حية لم يكن لها أدب جميل؛ فان أمة لا تعرف الشعور مكتوباً لا تعرفه محسوساً

فالأدب كما ترى ليس حلية تزين بها الأمة جيدها، وليس هو أُلهية من الألاهى كما يزعم الأستاذ شفيق جبرى (١) لأنه لو كان كذلك لانتظم فى سمط الكماليات، والأدب إنما هو ضرورة من ضرورات الحياة، وشرط لازم لها، لا يمكن تخيلها ولا تكمل سعادتها بدونه

ما ينبغى أن يكون الأدب أُلهية من الألاهى نعبث بهـا على ما تقتضيه المآرب وترتضيه الأهواء، فان الشر كل الشر فى هذه النظرة الخاطئة، ذلك بأن الأُلهية تصدفنا عن جليل الحياة وعظيمها، وتدفعنا إلى عالم البطالة نلهو ونعبث؛ فاذا نحن رحنا نصور ذلك ظفرنا بما لا خطر فيه ولا قيمة له، ونكون كمن فاز بالقبض على الريح. واعتبار الأدب أُلهية يهيب بالمتأدب إلى أن يتحرر من ربقة الجد واللمحة الصادقة، فيهذى لغواً تقرؤه العقول فى ساع كلالها وفتورها، أو يستمع الناس إليه كما يستمع الوالدان إلى ولدهما المحبوب وهو يلثغ بالألفاظ والكلمات، فاذا كذب أو أخطأ أو مسخ الحقيقة أو شوه الفضيلة غُفر له ذلك

ولعل فى النظر إلى الأدب كأُلهية مدعاة إلى التزويق فى البيان، والاكثار من المحسنات البديعية من جناس وتورية وطى ونشر، فينعدم الطبع ويغـدو الشعر مجموعة من الألاعيب اللفظية والتهريج الكلامى (٢). والحق أننا بلغنا فى هـذا غاية ننكرها ونأسف لها، فنحن ما نزال نخطئ فى تقديرنا للشعر، وفهمنا للمعانى، ونقدنا لفنون القول والبيان، وما نزال بسطاء سذجاً تخدعنا البهرجة الكاذبة والطلاوة العابثة، وتفتننا الألاعيب اللفظية والاناقة الكلامية، وترانا على ثقافتنا وجلال نهضتنا نجهل كل الجهل مقاييس الأدب الصحيحة، وحدود الجودة والرداءة، ومواطن الجمال والدمامة، نستحسن ما تنفى منه النفس وما هو حقيق بالنبذ والاهمال، ثم نستقبح ما قد يكون فى الذروة من البلاغة الرائعة! فما أحوجنا إلى إصلاح هذه النظرة العقيمة التى نزن بها الآثار الفنية، وتصحيح الذوق الأدبى المقلوب! وما أفقرنا إلى من يأخذ بأيدينا إلى النماذج الحية فيدلنا على قوتها وحسن تمثيلها، وإلى السخافة المرذولة فيرينا وجه ضعفها وعبثها! وعندى أن كل إنتاج فى الأدب لم يبدأ بهذا الاصلاح على هـذا النحو فانما هو محاولة فاشلة فائلة، ومضيعة للجهود المبذولة فى غير طائل . . .

لقد كنا إلى عهد قريب أمواتاً نرتدى معالم الأحياء، أمواتاً فى حسنا وشعورنا وتفكيرنا، أمواتاً فى أهدافنا ومُثلنا العليا، أمواتاً فى نظمنا ومرافقنا الاجتماعية، أمواتاً فى كل شىء لا يسمع لنا نبض ولا خفق حياة. كنا أحياء نعيش فى العدم أو يعيش العدم فينا، كأن الغيب الجليل الهازل قد قذفنا من جوفه جثثاً هامدة تغدو من المهد فى لحـد ومن اللحد فى مهد! فأنت، إذ تدرس الأدب العربى فى هذه الفترة الغافلة من الزمان التى دامت ما يقرب من ألف عام، لا تجد أثراً لـما يعتلج فى النفوس الخافقة من ضروب العواطف وشتى الانفعالات، وما يجرى فى الهواجس من الأحلام والأوهام، وما ينتاب الضمائر من قلق أو يأس أو ألم، وإنـما تلقى أدباً فارغاً أجوف يفيض بالاحساس المعكوس والاسفاف المخل والصناعة البديعية أو التدجيل الذى يعتمد على الطباق والجناس والمقابلة وما إليها! وحسبك أن تقرأ شعر ابن نباتة وابن معتوق والحلى لتلم بطرف من شعر اللفظ البالى الهزيل الذى يحبس المعانى المشبوبة فى أضيق الآفاق!

ثم اتصلنا بالغرب فى يوم اسماعيل وبعـده، وكان اتصالاً وثيقاً تناول بالتغيير بعضاً من العادات والأوضاع المعيشية، وكثيراً من طرائق التفكير والتعليم؛ وكان للآداب من هـذا

(١) راجع المحاضرة الأولى من كتابه «المتنبى»
(٢) راجع المقال الممتع الذى أثبته العقاد فى صدر «المطالعات»

التطور نصيب وافر ، فان المتأدبين الذين درسوا فى معاهد أوربا عادوا إلى ديارهم بعد ذلك يحملون رؤوساً وقلوباً غير التى كانوا يحملون ، ذلك بأنهم تذوقوا أشتاتاً من الأدب الحى ، وبلوا شخصيات من الشعراء ممتازة ، وفقهوا أساليب النقد الحديث ، ولما أرادوا القيام برسالة « الحياة » شرعوا فى الهدم وإزالة الأنقاض وتنبيه الأمة إلى مواطن النقص والهزل والكذب

هذا جماع ما يعترى الأدب فى اعتباره ملهاة وتسلية ؛ ولو أننا شئنا التمثيل لأتينا بهذا الغرض الوضيع الذى يكاد يكون كله غلواً وعبثاً ، ذلك هو المدح ، ومن البديهى أن يكثر فيه الغلو البشع لأن الممدوح ليس يرضى الا اذا خلعت عليه صورة ترفع من قدره وتعظم من شأنه ، ولأن المادح إنما جل همه التكسب والاستجداء . فلا بد إذن من المبالغة والكذب فى الاحساس والتوشية المموهة ، ولذلك كان المدح من أنواع الأدب الرخيص

وإنما الأدب العالى الرفيع تصويرٌ لما يتردد فى أطواء النفس من النزعات والمشاعر ، وترجمة لما يجول فى الخاطر من الهواجس والأحلام ، أو لغير هذا من صروف الحياة وأحداثها — يرسم الشاعر ذلك كله لاهازلاً ولا عابثاً وإنما جاداً كل الجد ، صادقاً تمام الصدق ، مخلصاً أوفى الأخلاص !

ارجعْ إلى نفسك حين تكتب ، فخذ عنها واستوحها ، وليكن لك من صدق إحساسك ودقة تأملك وصفاء بصيرتك ما تكشف به عن ألوان هذه الحياة النامية الزاخرة التى تسعى فى تلافيف قلبك وثنايا ضلوعك بحيث تجد لها صورتين : أولاهما فى الضمير وأخراها على القرطاس . فلن يكون الأدب أدباً إلا إذا صدر عن صاحبه كما تصدر الزفرة عن فؤاد المصدور والدمعة عن عين المحزون ؛ وإذا بهرك أن الشاعر أو الكاتب يبدع فى التصوير ويسمو فى البيان فينبغى أن تؤمن أن الرجل إنما يذيب من لحمه وعصبه ، ويريق من مائه ودمه فى سبيل الفن والأدب !

والاستحسان إنما يجب أن يكون فى إطار هذا الأدب السامى الرفيع برسله المبين لا خادعاً ولا مشعوذاً وإنما مصوراً مشاعره البينة النيرة ونزواته الخفية المكبوتة . فأنا إذ أنقد أنظر إلى إحساس الشاعر هل كان نافذاً عميقاً ؟ وإلى نظرته هل كانت عامة شاملة ؟ ثم الى تعبيره هل كان فيه مجيداً موفقاً ؟ فاذا تبيّن لى هذا كله على نحو ما أريد استحسنت وفضّلت ، وأنا محق نخور فى استحسانى وتفضيلى . وقد يكون من الخير أن نضرب لذلك مثلاً نوضح فيه هذا الذى نزعم ، فقد تغنى الأمثلة عن تقرير القواعد النظرية والشروح المستفيضة

ما اختلف عربى الى جامع بنى أمية فى الشام إلا أخذته حالة نفسية خاصة ببقايا المجد والعظمة ، يحسها فى أطوائه غامضة مبهمة ، كئيبة متحسرة ! فان كان مبيناً فصيحاً وشاء نشرها وتوضيحها لم يزد على قول أمير الشعراء :

مررتُ بالمسجد المحزون أسأله ... هل فى المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان فى منارته ... إذا تعالى ولا الآذان آذان !

هذه أبيات صادقة لا تمويه فيها ولا تضليل ، نظمها الشاعر فى قالب رائع جميل ، ولعل فى بسط الحزن على المسجد ما يضاعف هذه الروعة التى لا تلمحها فى الكلمات منفردة ، وإنما تلحظها منبثقة من خلال الاتساق والانسجام . إنه ليحلو لى هذا التساؤل عن مروان ، وهذا الترجيع للمحزون فأقبع فى مكانى هامساً فى خفوت : « وا حسرتاه على شوقى ! »

ولنتأمل — فى روية وإنعام — صورة هذا العزيز المهان التى يعرضها علينا شوقى :

بنت فرعون فى السلاسل تمشى ... أزعج الدهرَ عريُها والحفاءُ
وأبوها العظيم ينظر لمـــا ... رُدِّيت مثلما تُردى الأماءُ
أُعطيتْ جرة وقيل اليك النهـ ... ـرَ قومى كما تقوم النساءُ
فمشت تظهر الأباء وتحمى الدمـ ... ـعَ ان تسترقه الضراءُ
فبكى رحمة وما كان من يبـ ... ـكى ، ولكنما أراد الوفاءُ !

ما أريد أن أتناول هذه الصورة الشعرية الرائعة بالتحليل أبين مواضع قوتها وجمالها ، فانى ان لمستُها أخشى تشويهها والحط من شأنها ، فحسبى وحسب القارئ تلاوتها فى هدوء نتملى معاً حلاوتها ونستشعر نضارتها . إنما أطلب فى رفق ولين ، إلى الشباب الناهض ، أن ينظر الى الأدب بعين الجد والصدق حتى ينتج مثل انتاج شوقى الخالد

حمص « سورية » **محمد روحى فيصل**

الأدب والتاريخ

٣ – الرافعي

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

تتمة

إيمانه :

والرافعي رجل مؤمن إيمانَ فكرٍ وعقيدة ، تُشرق على قلبه وعقله حقائقُ هذا الدين ، فهي كأنما تأتيه تلتمس في كتابته وشعره حياةً تكون بها في الناس معنيً يقدرون على فهمه ، إذ لا يستطيعون أن يفهموه بأنفسهم ، فمن ثم تراه حين يكتب عن الدين يتدفق تدفُّقَ البحر ، وتتدافع معانيه تدافع الموج ، وتزدحم أفكاره ازدحام اللُّجة ؛ ومن هنا تغمض معانيه على بعض من لم تشرق حقائق هذا الدين على روحه وفكره

وما سهلٌ أن تجد كاتباً غير الرافعي يكتب بهذا الأسلوب في هذه المعاني ؛ فانك لترى إيمان أكثر من تعرف ، فكرةً يستبدُّ بها العقلُ المتقلب ، فهو إيمانٌ متقلقل يتنازعه الشك ، لا يأخذ ولايدع إلا بحذر ؛ أو تراه إيمان عقيدةٍ موروثة تستبدُّ بصاحبها استبداد الجهل والتقليد ، فهو إيمان جامدٌ ، لا يأخذ ولا يدع إلا ما أُريدَ على أن يأخذ وأن يدع . وقلما تجد غير هذين من يؤمن إيمان الفكر والعقيدة معاً ؛ ولو قد وُجد من يؤمن هذا الايمان ، لرأيتَ الاسلام ينبعث اليوم كأوّله ، ولعادت المعجزة الاسلامية تكتب فصلاً جديداً في تاريخ الانسانية

والرافعي بايمانه ذاك ينقاد للمقدور انقياد الطاعة ، واثقاً أن لامفرّ للانسان مما قُدر عليه ؛ فلا تراه يتبرّم أو يتسخط لشيء يناله ، وتسمعه يقول : « جئنا إلى هذه الحياة غير مخيرين ، ونذهب غير مخيرين ، إن طوعاً وإن كرهاً ؛ فمدَّ يدك بالرضى والمتابعة للاقدار أو انزعها إن شئت ، فانك على الطاعة ما أنت على الكره ، وعلى الرضى ما أنت على الغضب ؛ ولن تعرف في مذاهب القدر ، إذا أنت أقبلت أو أدبرت أي وجهيك هو الوجه ؛ فقد تكون مقبلاً والمنفعة من ورائك ، أو مدبراً والمنفعة أمامك ، والقدر مع ذلك يرمي بك في الجهتين أيهما شاء . وحريٌّ بمن يوقن أنه لم يولد بذاته ، ألا يشك في أنه لم يولد لذاته ، وإنما هي الغاية المقدورة المتعينة ، فلا الخلق يتركونك لنفسك ، ولا الخالق تاركٌ نفسك لك ... » فمن ثم ترى الرافعي دائماً يحسن الظنّ بالغد ويراه خير أيامه ، فهو يحاول أن يجعل من كل ألمٍ يناله لذَّة يُشعر بها نفسه ، ومن كل فادحةٍ تنزل به خيراً يترقبه ويهيء له ، وهو يفصح عن ذلك المعنى في مقالاته : سموّ الفقر ، وحديث قطّين ، وبين خروفين ، والانتحار ، وكتاب المساكين ، أدقّ إفصاح وأبلغه

ولعل أحداً لا يعرف أن الرافعي لا يرى في تلك العلة التي أودتْ بسمعه وهو غلامٌ بعد ، إلا نعمةً هيأته لهذا النبوغ العقلي الذي يُملي به في تاريخ الأدب فصلا لم يكتب مثله في العربية منذ قرون . ولاشيء غير الايمان بحكمة القدَر وقانون التعويض ، يجعل الانسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن ، فلا تأخذ منه النوازلُ بقدر ما تعطيه . . .

حياته الخاصة :

وبعد ، فأنا قد رأيت الرافعي يكتب ، وجالسته وهو يفكر ، وجلستُ اليه ليملي عليّ ، وصحبتُه في غدواته وروحاته ، وأشركني في مطالعاته ، وأخذ مني وأعطاني ؛ فمن حقّ العربية عليّ أن أصف بعض ما أستطيع مما رأيت

وحياة الرافعي بسيطة كل البساطة ؛ فهو في أشيائه بعيد كل البعد عن التأنق ، ولا يعتدّ بالعرف اعتداداً كبيراً . تراه في الديوان ، وفي البيت ، وفي الشارع ، وفي القهوة — رجُلاً كبعض من تعرف . ولو أنك ذهبت اليه في الديوان ، ورأيته جالساً إلى مكتبه ، يوقّع على هذه الورقة ، ويراجع تلك الحسبة ، ويحادث الناس ويحادثونه . . . لشككت أن يكون هذا هو الرافعي ؛ وقد يميّز مكتبه عن مكاتب غيره من الموظفين بضع صحف مركومة إلى جانب ، أو كتابٌ جديد مستند إلى كتاب ، على أنه في عمله معروف بشدّته وعنفوانه ، وكثرة دلاله أيضا ...!

وفي البيت قلما تجد الرافعي إلا جالساً إلى مكتبه مطالعاً

أو كاتباً ، وتكاد غرفة كُتُبه أن تكون كل نصيبه من الدار ...

وله صبرٌ عجيب على العمل ؛ فهو حين يجلس للمطالعة قد يظلّ ثماني ساعات لا يزايل موضعه . ولا يسهر خارج الدار عادةً إلا ليلةً أو ليلتين فى الأسبوع ، وسائر لياليه عمل مستمر فى الكتابة أو المطالعة ؛ ويندر أن يأوى إلى فراشه ليلة قبل الثانية عشرة ؛ وقد كان له عناية كبيرة بالرياضة البدنية إلى عهد قريب ، وهو يحاول معظم تمرينات (صاندو) الرياضى المشهور ؛ وترى صورته قريبة من مكتبه ، إلى جانب صورة محمد عبده ، وجمال الدين ، و . . . وملكة الجمال التركية كريمان هانم خالص . . . !

وهو لأولاده أخ كبير ، لا يدخل أحدهم إليه فى مكتبه لأمر إلا داعبه بكلمة عذبة أو إشارة لطيفة ، ولكنه قلما يدخل اليه أحد منهم إلا إذا دعاه ، لتخلو له جَلْوتُه

وإذا أراد الرافعى أن يسهر ليلة خارج الدار ؛ فليس إلا فى السيما أو فى القهوة ، وذهابه إلى السيما عمل أدبيّ أيضاً . . . فهو لا يميل إلا لمشاهدة نوع خاص من الروايات الفنية ، يكون له منها مادةُ وَحى . . .

وحتى فى القهوة لا يريد أن يمضى وقتــه عبثاً ؛ فلا بد من صحف أو كتب أو مجلات ، يمضى بها الوقت ، أو يفرغ منها مع الوقت ؛ فتراه مُكِباً على كتابه ، وفى يمينه قلم يشير به إشاراته ، وفى يساره ليُّ الكركرة [1] ، وفمه إلى فمها يبادلها أنفاساً بأنفاس . . . فاذا فرغ من الكتاب ومن الكركرة أقبل على جليسه بحديث عذب ، أكثرُه دعابة وأقلّه هزل . . . وإذا أردت أن تستمع الى الجِدّ الهازل ، أو الهزل الجادّ ، فاجلس الى الرافعى لحظات . . .

ولصوته رنّة عذبة ، كانت حبسة من مرض فعادت لحناً من الموسيقى ؛ فأنت تميِّز صوته بلهجته ورنينه بين مئات الأصوات . ولو سمعت الرافعى خطيباً لما حسبته هو الواقف أمامك يخطب ؛ فان صوته يعلو ويعلو ، ويمتدّ امتداده فى الجهات الأربع ، ثم يعود اليك عَوْد الصدى من مكان بعيد ، أرَنّ أغنّ مندفعاً متحمِّساً ينسيك الزمان والمكان والناس ، فاذا أنت حيث يريد أن ينقلك . ولكنك مع الأسف قلما تسمعه خطيباً ، لأنه يجهد فى الخطابة جهداً كبيراً يبلغ منه . فهو لا يخطب إلا حين يدعو نفسه أو يدعوه الموضوع ، فيحمل نفسه على ما يكره . . . فاذا دعوته أنت أنكر على نفســه أنه خطيب ؛ ومن أين له أن يعرف . . . ؟

وفى الرافعى كثير من الاعتداد بالنفس بقدر ما فيه من التواضع ، ولا أحسب أحداً يؤمن باجتماع هاتين الصفتين فيه من جلسة واحدة ، فقد يستقبلك لأول ما يعرفك بدعابة أو نادرة ، أو ينصرف عنك الى كتابه ، أو يقبل عليك فى صمت وأنت تتحدث اليه ، أو يأخذ عليك أشتات الحديث فلا يدع لك أن تتكلّم ، فتنصرف وما عرفت إلا لوناً واحداً من أخلاقه .

وجلساء الرافعى قليلون على كثرة من يعرفهم ويعرفونه .

كيف يكتب ؟

وهو حين يهم أن يكتب ، يختار موضوعه ، ثم يتركه للفكر يعمل فيه عمله ، وللواعية الباطنة أن تهيّئ له مادته ، ويدعه كذلك وقتا ما ، يطول أو يقصر ، يقيّد فى أثنائه خواطره ؛ لا تكاد تفلت منه خاطرة ؛ وهو فى ذلك يستمد من كل شئ مادةَ وَحى ، فكأن فى الموجود الذى يراه صوتاً يسمعه ، وكأن لما يسمعه لوناً يراه ، وكأن فى كل شىء شيئاً زائداً على حقيقته ، يملى عليه معنى أو رأياً أو فكرة

فاذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف ، يأخذ فى ترتيبها معنى الى معنى وجملة الى جملة ، وهذه هى الخطوط من هيكل المقالة

ثم هو يعود الى هذه الخواطر المرتّبة ، ينظر فيها ، ويزاوج بينها ، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد ؛ ولا يزال هكذا يزاوج ويستولد ، ويستنتج من كل معنى معنى ، وينفلق له عن كل رأى رأى ، حتى تستوى له المقالة فكرةً تامة بمضُها من بعض ، فيكتبها

ولا تراه حين يكتب أو يُملى ينظر الى أصول المقالة بقدر ما ينظر فى أعماق فكره الى ما يتّصل بمعنى ما يكتب ؛ فقد يكون المُمْلَى منه صفحة أو صفحتين ، فيُملى صفحاتٍ وصفحات

ومذهبه فى الكتابة إعطاء العربية أكبر قسط من المعانى ؛ فهو لا يكتب الكتابة الصِحافية السوقية ، لأن الهدف الذى يرمى اليه هو أن يضيف ثروة جديدة الى اللغة . ولن تجد كاتباً

(١) الكركرة : النارجيلة (الشيشة) كما يسميها الرافعى

غير الرافعى يجهد جهده فيما يكتب فلا يحاول مرة أن يسخر من قرائه أو يُشَعْوِذ عليهم ليملأ فراغاً يريد أن يمتلئ

ومزية أخرى تراها فى كتابة الرافعى ، هى أنه لا ينحرف مرة واحدة عن مذهبه فى المادة والموضوع ، فهو هو منذ كان الى اليوم ، لم يرجع عن رأى رآه ، أو يناقضْ نفسه فى منهج ابتدعه ، وهذا بعض أسرار الايمان فى هذا الرجل الذى لم يغالط نفسه قط

وله فلسفة خاصة به ، تعرف فيها طابعه وخلقه ومزاجه ، على حين ترى أكثر فلسفة المتفلسفين من أدبائنا مزَقاً مرقّعة من آراء فلان وفلان . . . وإنى لأشهد أن هؤلاء أكبر من كل فيلسوف فى الأرض ، لأنهم وعوا فى رءوسهم آراء كل فلاسفة الأرض . . . ثم لم يزيدوا . . . !

وحظ الرافعى من لغة العامة كحظّه من الفرنسية ... فأكثر لغته من الكتب ، وقد استغنى بالاطلاع عن الرواية ، وبالقراءة عن المدارسة والاستماع ؛ وهو مع ذلك قد يصنع أغانى شعبية بديعة ، بالغةً الغايةَ فى بلاغة العامية ، من دون أن ينحرف فى ذلك عن أسلوبه فى البيان العربى وطريقته فى توليد المعانى ؛ ولعل قراء (الرسالة) لم يزالوا يذكرون له « أغنية الزبّال ! » وتراه إذ يحاول أن يصنع شيئاً من ذلك يرجع إلىّ ليسألنى عن كلمة أو تعبير مما ينطق العامة ؛ فأقوم حينئذ منه مقام قاموس العامية ..

وهو مع ذلك لا يرى أكثر ما تكتب الصحف إلا عامية راقية . . . فهو يشكو دائماً الجوّ العامىّ الذى يحوطه ، فكيف به لو كان يسمع لغو الناس . . . ؟ ومن ثمّ لا يهم الرافعى أن يكتب إلا حاول جاهداً أن يتخلص من هذا الجوّ الذى كان فيه ، فيرجع إلى بعض كتب العربية يقرأ منها صفحات كما تتفق ، ليعيش لحظة قبل الكتابة فى بيئة عربية فصيحة اللسان . وخير ما يقرأ فى هذا الباب كتاباتُ الجاحظ وابن المقفع . وأحبّ الكتب اليه من بعد ، كتاب الأغانى لأبى الفرج

ولكتابة الرافعى جرس موسيقى خاص تتميز به ، حتى ما يمليه على عجل بلا إعداد ولا توليد ؛ وكثيراً ما يُملى بلا إعداد صفحات وصفحات ، وقد أملى علىّ مرة مقالاً طويلاً فى الرد على بعض الأدباء ، استغرق تسعة أعمدة من صحيفة يومية ، على حين لم يستغرق إملاؤه ساعات ؛ ولعل تعبى فى كتابته كان أكثر من تعبه فى إملائه . . . !

والرافعى على ما يبدع فى كتابته ، لا يرى ما كتبه يرضيه بعد الفراغ منه بساعات ، فهو دائماً يطلب الأعلى ؛ وهو نوع من التواضع ونوع من الطموح فى وقت معاً . . . !

ويُتهم الرافعى بالغموض أحياناً ؛ وليس ثمة غموض فيما يكتب إلا عند من لم يتزوّد من الأدب الصحيح ، أو يتعوّد قراءة أدب الرافعى ؛ على أن كتابته فى مجموعها لا تصل إلى نفس قارئها إلا أن يقرأها قراءة الشعر ، بعقله وروحه ، لا قراءة القصص والروايات ، يفتش بعينيه بين السطور عن معنى يسليه ، أو حادثة تُزجى بها الفراغ . . . ونصيحتى إلى الذين يطلبون التسلية فى الأدب ، ألا يقرءوا كتب الرافعى ، فانها لن تجدى عليهم شيئاً ...!

وقد يطلب إليه الكثير من ناشئة الأدب أن يجعل أدبه أهون مما هو أو أقلّ دسماً ، فيأبى أن ينزل إلى ذاك ؛ ومذهبه أن يحاول جذبَ الجمهور إلى أعلى ، بدل أن يتدلىّ هو إلى الجمهور ، وأن يكتب ما يُرضى الفن لا ما يرضى الناس . على أنه لو أراد الرافعى أن ينزل لما استطاع أن ينزل إلا أن يصير شيئاً غير الرافعى لأنه على مقدار عمق الفكرة ، يكون عمق الصورة اللغوية التى تتأدّى بها ، ولن يستطيع كاتب من الكُتّاب — فيما أرى — أن يرضى الفن ويرضى الجمهور فى وقت واحد ، حتى لو كان يكتب بلغة العامة ، فان الكتابة لغةٌ وفكر ، أفتراه إن كتب بلُغة العامة ، يكتب أيضاً بأفكار العامة . . . ؟

وقد أخذ الرافعى منذ أكثر من عام يكتب فى (الرسالة) نوعاً أحسبه جديداً فى الأدب العربى ، جَمَعَ إلى الرافعى طائفة من القراء لم يكونوا يقرؤون له ، وعرّفه إلى الذين لم يكونوا يعرفونه إلا من خلال ما يكتب عنه خصومه . ولا أدلّ على قيمة هذه المقالات ، من ترجمة بعضها إلى غير العربية ، على ما فى ترجمة كتابة الرافعى مِن عنف ومشقة !

وأذكر أن بعض المستشرقين الألمان يُعنى بوضع كتاب بالانجليزية عن (زعماء الأدب العربى الحديث) بمعاونة الأستاذ طاهر الخميرى المغربى ، وقد وضع الجزء الأول منه عن خمسة من

كبار كتابنا ، فلما قرأ مقالات الأستاذ الرافعى فى (الرسالة) ، كتب اليه منذ قريب رسالة طويلة يثنى عليه ثناء بالغاً ، ويعده بأن يصحح أغلاطه فى الجزء الثانى من الكتاب . . . . !

الرافعى القصصى :

لم يكن الأستاذ الرافعى معروفاً بكتابة القصة ، حتى جاءت قصصه فى (الرسالة) برهاناً على نوع جديد من عبقريته ، وهو يروى أكثرها عن السلف من الأئمة والخلفاء ، فما منزلة هذه القصص من الحقائق التاريخية ؟ . . . هذا سؤالٌ أحسب الكثير من القراء ينتظر الجواب عنه ؛ ذلك لأن كثيراً منهم لا يرى للرافعى فيها يداً إلا أن يُحلّيها لوقتها . وأىّ يدٍ هذه . . . ؟

وطريقة الرافعى فى كتابة هذا القصص غريبة ، فمعظمه لا أساس له من الواقع ، أو أن له أساساً لا يلهم هذه القصصَ الطوال البديعة فى خيالها وموضوعها وفنها ، وانما هو يفكر فى موضوع الحكمة التى يريد أن يلقيها على ألسنة التاريخ — على طريقته فى تأليف مقالاته — فاذا انتهى إلى ذلك تناول كتاباً من كتب التراجم الكثيرة بين يديه ، فيقرأ منها ما يتفق حتى يعثر باسم ما ، فيدرس تاريخه ، وبيئته ، وخلانه ، ومجالسه ، ثم يصنع من ذلك قصة لا تزيد على سطور ، يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذى أعدّه من قبل ، وإنه ليُلهم أحياناً ويوفق فى ذلك توفيقاً عجيباً ، حتى تأتى القصة وكأنها بنت التاريخ ، وما للتاريخ فيها إلا سطور ، أو إلا أسماء الرجال . . . .

على أن وجه الابداع فى ذلك ، هو قدرة الرافعى على أن يعيش بخياله فى كل عصر من عصور التاريخ ، فيحسّ احساسه ويتكلم بلسان أهله ، حتى لا يشكّ من يقرؤها فى أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء . . . .

فليزدْنا الرافعى من هذا الباب ليُعرّف دعاةَ الجديد أى رجل هو من رجالات العربية ، وما أشك أن هذا النوع من الأدب سيكون له فصلٌ بعنوانه فى تاريخ الأدب الحديث

أرانى قد أطلت وما استوفيت ، على أنى ما قصدت إلى دراسة الرافعى ، وإنما هو المام سريع ببعض جوانبه ، على مقدار ما يتهيأ فى الذاكرة من الخواطر لوقتها ، فمعذرة ، والى اللقاء بعد جمام . . . ؟

(طنطا) محمد سعيد العريان

دراسات فى الأدب الانكليزى

٢ — وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

المتاخمون — The Borderers

وعلى أثر هذه الهبة أخلد ورد زورث إلى السكينة فى بيته الجديد فى « راسيدوم لودج » فى مقاطعة دور تشاير منقطعاً عن العالم وعاكفاً على المطالعة والانتاج ، وفى بيته هذا نظم مأساته الشعرية المشهورة « المتاخمون » ، وقد ضمنها خلاصة عقيدته التى اقتبسها من « وليم ڤودْوِنْ » وفيها يدعو الى حل الشرائع والسنن الاجتماعية وهدم الفروق بين الطبقات البشرية والمناداة بتأسيس هيئة اجتماعية جديدة شعارها المساواة والديمقراطية ، أما تأسيسها فمن طريق الدعاية والجدل ، لا عن طريق العنف والشدة كما كان يؤمن فى بدء حياته . ولعل هذه الفلسفة أقرب ما تكون لمبدأ الشيوعية الجديدة . بيد أن وردزورث لم يطل تمسكه بهذه العقيدة بل نبذها حالما تحقق صعوبة نجاحها وتنفيذها

كولردج ووردزورث

كان كولردج الشاعر الشهير يقطن فى بيت قريب من مسكن شاعرنا ، فلما علم بوجود ناظم « القطعات الوصفية » فى جواره رأى أن يزوره . ولما التقيا كان أول ما فعلاه أن تبادلا قراءة منظوماتهما وخصوصاً « الكوخ المتهدم » أو « مرغريت » وقد ضُمّتْ مؤخراً إلى قصيدته المشهورة « النزهة The Excursion » والمتاخمون The Borderers لوردزورث ومأساة أوساريا Osaria لكولردج

ولقد كتبت دوروثى رسالة إلى أحد أصدقائها تقول فيها : « لقد كانت خسارتك عظيمة فى عدم مشاهدتك كولردج .. إنه لرجل عظيم حقاً ، ولا ينطق إلاّ بحديث طلى عذب يشفّ عن سموّ روحه وقوة إدراكه ، وإنه لأسود الحاجب صلت الجبين »

وعلى أثر زيارة كولردج له كتب عنه يقول : « انني لأستصغر نفسى إذا ما قورنت به » . وفى رسالة له يشير إلى دوروثى بأنها « امرأة حقاً ، وتتجلى أنوثتها فى طبيعتها وفى روحها وعقلها . هى ساذجة الطبع ، قوية العاطفة عفيفة النفس ، ذات عين ثاقبة دقيقة الكشف والملاحظة » . ويقول وردزورث عن صديقه كولردج : « لم أر له مثيلاً بين الرجال »

فلا غرو إذن أن نجد شاعرنا وشقيقته بعد تبادل مثل هذه العواطف مع كولردج ينزحان إلى قرية صديقهما غب زيارته لهما بشهر . هناك وجد كلٌّ منهما له فى الآخر مكملاً . فبينا كان كولردج رجل خيال وأحلام ، كان وردزورث شاعر الطبيعة والحقيقة . وليس أحوج من المصادقة بين الشعراء إلى التباين فى الأهواء والأذواق الأدبية والفنية

وما كاد يستتب أمرهما حتى شرعا فى مراسلة « نيومنثلى مقزين » ، فساهما فى نظم قصة موضوعها « الملاّح القـديم The ancient Mariner » . أما مصدر هـذه القصة فهو حلم قصه عليهما أحد الأصدقاء فرأيا أن يحوكاه فى قصة شعرية . غير أنهما عدلا عن الاشتراك فى نظمها لما لقياه من المشقّة فى اقتسام مواضيعها الرئيسية . فقد قرّرا أولاً أن ينظم وردزورث الأجزاء التى تتجلّى فيها الأشياء والحوادث عاديّة مألوفة ، وأن يقتصر كولردج على ما يُعتمد فيه على الخيال الرائع والتصوير الشائق . ولالتباسهما فى التمييز ما بين هـذين النوعين من الفنّ آثر كولردج أن يختصّ بنظمها وحـده ، ففصل ذلك بعد أن نظم وردزورث بضعة أبيات منها . ويُعزى إلى وردزورث استنباط الطائر الميمون Alabatross أحد أبطال هذه القصة . أما الفلسفة التى تتضمّنها هذه القصّة فهى أن يحبّ الانسانُ ما على الأرض على السواء حيواناً كان أو انساناً أو جماداً ، ما دامت كلُّها من خلقه تعالى

ولقـد عزم الشاعران على دراسة اللغة الألمانية والالمام بثقافتها ذريعة إلى تفهم فلسفتها الفنية . لهذا قرّرا السفر إلى ألمانيا ، بيد أن أحوالهما الماديّة كانت مضعضعة إلى حـدّ رأيا معه أن يسدّا عوزهما عن طريق النشر . لهذا أصدرا فى سبتمبر ١٧٩٨ مجلّداً جامعاً لأشعارهما أسمياه « قصص شعرية غنائية » LyricalBallds . ولم يكن لـكولردج فيه غير ثلاث قصائد إحداها « الملاّح القـديم » ولسوء الحظ لم يصادف الـكتاب رواجاً كبيراً فى بدء الأمر ، كما يظهر من رسالة بعثت بها سارة زوج كولردج إليهما بُعيد سفرهما إلى ألمانيا تقول فيها من ضمن ما كتبته لهما « لم يلق الـكتاب الاقبال المرجو »

سافر الشاعران ودوروثى إلى ألمانيا مخلّفين زوجة كولردج وأطفالها فى رعاية بول أحد أصدقائهم . وقد رأوا أنهم بانفصالهم يقلون من المحادثة باللغة الانـكليزية ويكثرون من ممارسة اللغة الألمانية ، لهذا قصد كولردج راتزبرج ليقضى هناك بقية الشتاء ؛ أما وردزورث وشقيقته فآثرا البقاء فى مدينة غوسلار حيث نظم قصائده فى « الطفولة الانكليزية » . ولم يستفد وردزورث من هـذه السياحة بقدر ما استفاد صديقه كولردج ، فقـد أصبح كولردج قادراً على النطق باللغة الألمانية كابنائها ، وعلى أثر رجوعه من ألمانيا ترجم كتاب « ولنشتين » للفيلسوف شيلر . إلاّ أن إلمام وردزورث اليسير بهذه اللغة لم يكن بعيد الأثر فى حياته الأدبية . رجع وردزورث وشقيقته من ألمانيا يحدوهما الشوق والحنين إلى أرض الطفولة ، وكان ذلك فى ربيع سـنة ١٧٩٩ ، وفى طريقهما عرّجا على سوكبرن ليزورا أصدقاءهما آل هتشنسن . وما كاد كولردج يسمع بذلك حتى لحق بهما إلى سوكبرن فى صيف تلك السنة

فى اقليم البحيرات مرة ثانية

وفى هـذه الزيارة أتيح لوردزورث أن يرود هو وكولردج ودوروثى وبعض الأصدقاء اقليم البحيرات مرة ثانية ، وخصوصاً مع عصبة كهذه دأبها التأمّل ، وفى حين اكتملت فيه عقلية وردزورث وأرهف حسُّه للتشبّع من جمال الطبيعة فى هـذا الاقليم الذى ألفه منذ صباه . واقليم البحيرات من أجمل البقاع فى بلاد الانـكليز على الاطلاق ، وهو يقع على حدود سكوتلندا فى مقاطعتى وستمولند وكمبولند حيث ولد شاعرنا . وفيه نحو ست بحيرات متقاربة ، تحيط بها جبال شاهقة وتطوّقها مناظر طبيعية رائعة . فى هـذا الاقليم قضى كلٌّ من كولردج وسذى قسماً من حياته ، وفى هذا المحيط نشأ شاعرنا وترعرع ، فلا غرو إذا أمه بعيد رجوعه من ألمانيا . ولاستطابته المقام والعيش فى

هذه البقعة استأجر فيها بيتاً سماه « كوخ الحمامة » . وفى القسم الأول من قصيدته « المعتزل The Recluse » صورة رائعة لحياة أولئك الأدباء فى ذلك البيت . ولقد ذاع صيت هـــذا الاقليم واشتهر باشتهار أصحابه الشعراء وروّاده الأدباء فأصبح ولا يزال محجة لأهل الأدب والفنّ يقصدونه من جميع الأقطار الأوروبية ليتعرّفوا إلى البقعة التى خلّدت أسماء شعراء البحيرة وخُلدت فى أشعارهم . وجعل مؤخراً من بيت وردزورث ورفاقه متحفا أودعَ فيه كلّ ما خلّفه من آثار تظلّ تدلّ عليه وتنطق بنبوغه على مدى الأيام . ولقد وضع وردزورث سنة ١٨١٠ مقدمة لكتاب « مناظر منتخبة من كمبرلند » لولكنسن ، وهو وصف بارع لهذه البيئة وسكانها

فى تلك البقعة أخذ نجم وردزورث يسطع فى سماء الشعر إذ ثمّ شرع ينظم قصائده الخالدة التى تُعدّ فتحاً جديداً فى الأدب الانكليزى ، كيف لا وقد أتيح له أن يحتك بزهرة الأدباء فى ذلك العصر كسر هتشنسون ولامب ودى كونس وسكوت وسر همفرى ديفى . فكانت عصبة دأبها البحث والتأمل والتحقيق والانتاج الأدبى . وكثيراً ما كان يقوم بنزهات قصيرة مصطحبا شقيقته دوروثى وأخاه يوحنا ، فيرتادون شواطئ البحيرات ويتسلقون الجبال والآكام ويهبطون الوديان والمنعرجات وشاعرنا فى تنقلاته هذه كثير التأمل دقيق الملاحظة والاستقراء ، فلا يفوته منظر جميل دون أن يصفه ، ولا خاطر رقيق إلا ويسجله . فى ذلك الاقليم أتمّ قصائده الكبرى التى تمثل نزعته وتشرح فلسفته ، أهمها « المعتزل The Recluse » والفصل الأول من « النزهة The Excursiou » « والفاتحة The Prelude » . وفى قصائده هـذه وفى غيرها من منظومات هذا الأوان تلمح روحا وثابة ونفساً نزاعة مستمصية ؛ وسنقول كلمة فى « النزهة » و « الفاتحة » عند الكلام على شعره

(يتبع) **جريس القسوس**

حول الفقه الاسلامي
والفقه الروماني

قرأنا في (الرسالة) الثامنة بعد المائة مقالة الأستاذ محمد محسن البرازي، في الردّ علينا، فاذا الأستاذ برغم تفوقه على أكثر أقرانه من الشباب الذين درسوا في أوربة بذكاء كان موضع اعجابنا، قد أخطأ فهم كلامنا، فأخذ منه بعضاً وترك منه بعضاً. وحمّل كلامنا ما لا يحمل، وأخذ منه عبارة على غير الوجه الذي وضعناها عليه، ثم لم يدّخر وسعاً في ردّها، ولم يتورع عن أن يسميها زعماً لا يمكن لعاقل أن يزعمه، وما لم يمكن للعاقل يمكن للمجنون.... فكان الجنون جزاؤنا لأنا لم نذهب الى الأستاذ فنقرأ له كلمتنا كلها، التي لم يقرأ منها إلا ما فيه الردّ علينا، فكان أمرنا معه كما قال المثل الفقهي:

« زَنَّاهُ تَحَدَّه... »

***

لا يا أستاذ! أنا ما قلت: « إن الفقه الروماني جديد لفقه طائفة من العلماء الخ... » وسكتّ، ولكني أوردت هذه الجملة في معرض الفرض والتقدير، فقلت (وهذه عبارتي بالنص):

« ... على حين أنه لا يمكن أن يقوم دليل علمي واحد على أن الفقه الاسلامي مأخوذ من الفقه الروماني، (وقد علق على هذه الكلمة أستاذنا الجليل الزيات بالتفريق بين الأخذ والتأثر) إلا إذا كان القرآن مترجماً عن لغة الرومان، وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رومانياً خرج من أبوين عربيين، والذي نقوله، (وليتنبه القراء للذي نقوله) إنه إذا كانت هناك علاقة بين الفقهين (إذا كانت) فان الفقه الروماني هو المقتبس عن الفقه الاسلامي؛ ودليلنا على ذلك أن الفقه الروماني الحاضر جديد لفقه طائفة من العلماء بعد أن اندثر الفقه الروماني القديم، وهذا الدليل على علاته (تأمل قولنا على علاته) أقوى من دليلهم على دعواهم، فليثبتوا إن استطاعوا أن الفقه الروماني الحاضر هو القديم بذاته، وليأتونا بالأسانيد الصحيحة، والروايات المضبوطة، كما نأتيهم نحن بأسانيد حديثنا، وروايات سنتنا »

هذه هي الجملة، وليس معناها يا سيدي أنا نعتقد بأن الفقه الروماني جديد الخ.. ولم يكن موضوع مقالنا الفقه الروماني، ولكنها كلمة جاءت عرضاً، ومعناها أن هذه الدعوى على علاتها (أي مع اعترافنا بأن فيها شيئاً) أقوى من دليلهم على دعواهم أن الفقه الاسلامي مأخوذ من الروماني، أي أن دليلهم ليس بشيء مطلقاً، ما دام دليلنا على هذه الدعوى الغريبة أصحّ منه، هذا هو المقصد، وهذا أسلوب من أساليب البيان يفهمه من كان من أهله!

ثم إن هذا كله على فرض أن هناك علاقة بين الفقهين، ووجود العلاقة هو المقدمة المنطقية اللازمة لهذه النتيجة، ونحن ننكر هذه العلاقة، والأستاذ قد أنكرها وبيّن أنه لا تشابه في أحكام الفقهين في الأحوال الشخصية الخ.. فنحن إذن متفقون على اسقاط هذه النتيجة

ولست أقول هذا الآن، ولكن يقوله كلامي المنشور في (الرسالة) الواحدة والتسعين منذ أربعة أشهر كاملة

فهل يصحّ للأستاذ أن يقيم القيامة علينا، ويزلزل بنا الأرض، من أجل هذه الكلمة؟...

***

هذا، وإن في مقال الأستاذ شيئاً عن الموازنة بين رواية الحديث ونقل الفقه الروماني، قد يفهم منه أن الفقه الروماني أصحّ سنداً، وأثبت نقلا، لأنه — كما يقول الأستاذ — قد دوّن في عصر جامعه ومصلحه جوستنيان، والحديث إنما شرع في تدوينه بعد زهاء قرن ونصف قرن من تاريخ الهجرة، ولأنه لا دليل على الصحة بعد الوثائق الأثرية، والنسخ المخطوطة القديمة. فنحن ننبه من قد يفهم منه هذا الأمر بأنه باطل وليس بشيء

ونحن نكرر وصية الأستاذ (الشاب) لشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية (ونزيد: أو تعصب عليهما)، وكره لأوربة والثقافة الغربية (ونزيد: أو موت في عشقهما) فيسرفوا في القول حتى يجانبوا المنطق

ونسأل الله أن يرينا الحقّ حقاً ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه. ونشكر للأستاذ الفاضل جهده وفضله؟

علي الطنطاوي

٨ – شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

عقيدته الدينية والسياسية: كان لنشأة أبي العتاهية بالكوفة أثر في عقيدته الدينية والسياسية، فقد كانت الكوفة مهد التشيع للعلويين من يوم أن اتخذها علي رضي الله عنه عاصمة خلافته، وآثرها بذلك على المدينة التي كانت عاصمة الخلافة قبله، فنشأ بها أبو العتاهية متشيعاً بمذهب الزيدية البترية، لا يتنقص أحداً ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان؛ وكان مجبراً، يقول بالتوحيد، ويزعم أن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء، ثم بنى العالم هذه البنية منهما، وهو حادث العين والصنعة لا محدث له إلا الله تعالى، وسيرد الله كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعاً؛ وكان يذهب إلى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعاً، ويقول بالوعيد وتحريم المكاسب. ولما ظهر الخلاف في خلق القرآن كان ممن يقولون بخلقه، وقد حدث أبو شعيب صاحب ابن أبي دؤاد قال: قلت لأبي العتاهية: القرآن عندك مخلوق أم غير مخلوق؟ فقال: أسألتني عن الله أم عن غير الله؟ قلت عن غير الله، فأمسك؛ وأعدت عليه فأجابني هذا الجواب حتى فعل ذلك مراراً، فقلت له مالك لا تجيبني؟ قال: قد أجبتك ولكنك حمار

فهذه هي عقيدة أبي العتاهية لا شيء فيها مما ينسبه إليه بعضهم من الزندقة، وإن كان يخالف فيها المعروف من مذهب الجماعة، ولكن بني العباس كانوا قد نقضوا ما اتفقوا عليه مع بني علي قبل قيام دولتهم، من جعل الأمر شورى بينهم، فاستأثروا به لأنفسهم، وثار بذلك بنو علي عليهم، وتحركت نفوس كثير من العلماء ووجوه الناس لنصرتهم، فلم ير بنو العباس حيلة تنفعهم في ذلك إلا أن يأخذوهم باسم الدين، ليخدعوا به العامة، ويرهبوا به الخاصة، وأحدثوا في ذلك ما لا يعرفه الاسلام من التجسس على الناس في أمور عقائدهم؛ وقد أمر الاسلام أن يؤخذ الناس في ذلك بما يظهر منهم، وأن يترك باطنهم لله تعالى وحده؛ وإنما السياسة وحدها هي التي أخذت من أخذت في ذلك العهد باسم الزندقة، والدين بريء من هذه الدماء التي سفكت بالشبهة، واستبيحت بالظنة

فما انتقل أبو العتاهية من الكوفة إلى بغداد، وعرف العباسيون أخذه بالتشيع لأبناء علي، حتى استرابوا به، وأحاطوه بجواسيسهم الذين بثوهم في الناس لارهابهم بالصاق تهمة الزندقة بهم، إذا رأوا فيهم ميلا إلى أعدائهم، فعاش أبو العتاهية في بغداد تحوم حوله هذه الشبهة من أجل تلك الغاية السياسية، واغتر بها بعض الناس فطعنوا بها في عقيدته، وهو أبعد الناس من تلك التهمة الشائنة؛ وقد أمكنه مع هذا أن يقوم بتلك الدعاية الشعرية التي فهم العباسيون غرضه السياسي منها، وأنه يقصد محاربة دولتهم بذلك السلاح الذي أعياهم أمره، وجعل يفتح أعين الناس إلى عيوبهم فلا يعرفون كيف يكسرونه من غير أن يفتضح أمرهم، ولم يجدوا إلا أن يداوروا في أمره، ويأخذوا صاحبه بالشدة مرة وباللين أخرى، ويشككوا الناس في أمر عقيدته ليضعف أثر شعره فيهم، ولا يصل إلى ما يريده منهم، فكانت محاربة بارعة من الجانبين، قام فيها الدهاء السياسي مقام السيف، وأدى فيها أبو العتاهية رسالته الشعرية بدون أن يمكن سيف العباسيين من رقبته، وعملوا هم على إفساد غايته بدون أن يفضحوا أمرهم أمام الناس بسفك دمه لأنه ينشر فيهم تلك الدعاية المحبوبة، ويحاول إصلاح نفوسهم بالزهد الذي بعدوا عنه كل البعد، وشغفوا بدنيا العباسيين كل الشغف، وإنما نسوق بعد هذا بعض ما كان يلقاه أبو العتاهية في ذلك لنعرف كيف كانوا يتكلفون الصاق تلك التهمة به

ذكر النسائي عن محمد بن أبي العتاهية أنه كان لأبيه جارة تشرف عليه، فرأته ليلة يقنت فروت عنه أنه يكلم القمر، واتصل الخبر بحمدويه صاحب الزنادقة، فصار إلى منزلها ليلاً وأشرف على أبي العتاهية فرآه يصلي، فلم يزل يرقبه حتى قنت وانصرف إلى مضجعه، وانصرف حمدويه خاسئاً

وممن كان يشنع على أبي العتاهية بهذا رجاء بن سلمة ومنصور ابن عمار، وقد حدث العباس بن ميمون عن رجاء قال: سمعت

أبا العتاهية يقول : قرأت البارحة عم يتساءلون ، ثم قلت قصيدة أحسن منها . قال وقد قيل إن منصور بن عمار شنع عليه بهذا . ولما قص منصور على الناس مجلس البعوضة قال أبو العتاهية إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفى ، فبلغ قوله منصوراً ، فقال أبو العتاهية زنديق ، أما ترونه لا يذكر فى شعره الجنة ولا النار ، وإنما يذكر الموت فقط ، فبلغ ذلك أبا العتاهية فقال فيه :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً … إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
كالملبس الثوب من عرى وعورته … للناس بادية ما إن يواريها
فأعظم الإثم بعد الشرك نعلمه … فى كل نفس عماها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبصرها … منهم ولا تبصر العيب الذى فيها

فلم تمض إلا أيام يسيرة حتى مات منصور ، فوقف أبو العتاهية على قبره وقال : يغفر الله لك أبا السرى ما كنت رميتنى به

وحدث الخليل بن أسد النوشجانى قال : جاءنا أبو العتاهية إلى منزلنا ، فقال زعم الناس أنى زنديق ، والله ما دينى إلا التوحيد ، فقلنا له فقل شيئاً نتحدث به عنك ، فقال :

ألا إننا كلنا بائد … وأى بنى آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم … وكل إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يُعصى الإلـ … ـه أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة … وفى كل تسكينة شاهد
وفى كل شىء له آية … تدل على أنه الواحد

وحدث محمد بن أبى العتاهية قال : لما قال أبى فى عتبة :

كأنما عتبة من حسنها … دُمية قَسٍّ فتنت قَسها
يارب لو أنسيتنيها بما … فى جنة الفردوس لم أنسها

شنع عليه منصور بن عمار بالزندقة ، وقال يتهاون بالجنة ويبتذل ذكرها فى شعره بمثل هذا التهاون . وشنع عليه أيضاً بقوله :

إن المليك رآك أحـ … ـسن خلقه ورأى جمالك
فحذا بقدرة نفسه … حورَ الجنان على مثالك

وقال أيصور الحور على مثال امرأة آدمية والله لا يحتاج إلى مثال ، وأوقع له هذا على ألسنة العامة فلقى منهم بلاء

ولا تخفى سماجة هذا النقد ، وأن الدين لا يصل فى الحرج على الشعراء إلى هذا الحد ، وأين ابن عمار فى هذا من عبد الملك بن مروان وقد اجتمع ببابه عمر بن أبى ربيعة وكثير عزة وجميل بثينة ، فقال لهم أنشدونى أرق ما قلتم فى الغوانى ، فأنشده جميل :

حلفت يميناً يا بثينة صادقا … فإن كنت فيها كاذبا فعميتُ
إذا كان جلد غير جلدك مسنى … وباشرنى دون الشعار شريتُ
ولو أن راقى الموت يرقى جنازتى … بمنطقها فى الناطقين حييتُ

وأنشد كثير :

بأبى وأمى أنت من مظلومة … طَبِنَ العدوُّ لها فغير حالها
لو أن عزة خاصمت شمس الضحى … فى الحسن عند موفق لقضى لها
وسعى إلىَّ بصرمْ عزة نسوةٌ … جعل المليك خدودهن نعالها

وأنشد ابن أبى ربيعة :

ألا ليت قبرى يوم تقضى منيتى … بتلك التى من بين عينيك والفم
وليت طهورى كان ريقك كلَّه … وليت حنوطى من مُشاشك والدَّم
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتى … هنا أو هنا فى جنة أو جهنم

فقال عبد الملك لحاجبه : أعط كل واحد منهم ألفين ، وأعط صاحب جهنم عشرة آلاف . ولكن هذا عصر وذاك عصر ، والناس فى كل عصر على دين ملوكهم ، وإذا كان العباسيون قد تغالوا فى أخذ الناس بالزندقة فى عصرهم ، فلماذا لا يتغالى ابن عمار وغيره فى ذلك أيضا ؟

عبد المتعال الصعيدى

دموعى وصباباتى

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

دموعىَ ياليلَى إليكِ رسائل … أبثّ صباباتى بها أو أحاول
ومن فشلت آماله فى حياته … فليس له غير الدموع وسائل
من السَّبح قد كلّت يداى وأرجلى … أما لك يا بحر المحبـة ساحل
أقول لقلبى يوم مات رجاؤه … عزاءك يا قلبى فإنك ثاكل
وقد أتداعى للمنيّـة فى غد … كأنى جدار ضعضعته الزلازل
على الأرض أيام الشقاء كثيرة … تُمضّ وأيامُ السرور قلائل
تقرّبتِ يانفسى من الهُلك بعدما … تكلّفتِ عمراً أفعمتـه الغوائل
دنا أن تكونى للمنايا فريسة … فلا تجزعى مما بكِ الدهرُ فاعل
ولا تجزنى إمّا ألمّ بكِ الردى … فقبلكِ يا نفسى تردّت فطاحل
وماقيمةُ القلب الذى تحت أضلعى … فتنْصبَ أشراكٌ له وحبائل
على الحق قد عوّلتَ ياقلب مؤثرا … ومَن لك ألا يُزهق الحق باطل
ومهما تزدنى غيهباً فوق غيهبٍ … فإنك عند الصبح يا ليلُ زائل
إذا كنتَ تستهدى بعقلك وحده … فما أنت فى يوم إلى الله واصل
وإن كان إيمان الفتى عن عقيدة … فأضيعُ شىء فى الحوار الدلائل
يلوموننى فى حب ليلَى بشدة … ومن حبّ ليلى لى عن النوم شاغل
لقاؤكِ ياليـلى لنفسى لبانةٌ … فأىّ رقيبٍ بيننا هو حائل
وإن تك روحى هـذه ثمناً له … فما أنا بالروح العزيزة باخل
ونفسى إذا فتّشتِ نفسى وجدتِها … كعصفورة قد هدّدتها الأجادل
وللهمّ إمّا جنّنى الليـل داجيا … جحافلُ فى آثارهن جحافل
إذا كان لى ذنبٌ به تأخذيننى … فإنى لذاك الذنب بالدمع غاسل
سهامك يادهرَ الأديبِ كثيرةٌ … وكلّى إذا سدّدتَ سهماً مَقاتل
وياطيف ليلى أنت أكرم من سرى … إلى مغرمٍ قد أعجزته الوسائل
وياطيف ليلى أنت فى الأرض صنوُها … وأنت لها فى كل شىء مماثل
ويا طيفها مالى شكاةٌ من النوى … فإنك فى عينى وقلبىَ ماثل
تُماطلنى ليلى إذا هى واعدت … وأنت إذا واعدتنى لا تُماطل
وإن بخلت ليـلى فإنك محسنٌ … وإن هجرت ليلى فإنك واصل
لقـد جعل الدنيا إلىّ حبيبةً … هوًى هو فى أعماق نفسىَ داخل
لئن كان يا نفسى شديداً بك الصدى … لقد نضبت يا نفس تلك المناهل
وما هـذه الدنيا سوى دار محنةٍ … قليل بها مَن لم تصبه النوازل
إذا سلم الانسان من غيظ أرضه … أصابته من صوب السماء القنابل
حيـاة إذا إنفكّت تزايل أهلَها … وموتٌ إذا استولى فليس يزايل
ولا تحسب الأخرى أقل قساوةً … فأكثرنا منهـا على النار نازل
أراك تخاف النارَ نارَ جهنمٍ … وإنك أنت المؤمن المُتفائل
يقولون شيطانُ القريض موسوسٌ … وهل مصدر الوسواس إلا الخلاخل
وما منتدى الآداب إلا كروضة … محبّبـة أبكارها والأصائل
وكل امرئ يصبو لما اختار ذوقُه … وفى الروض غربانٌ وفيه عنادل
وللعندليب الزهرُ فى الروض باسمٌ … وللزهر فيـه العندليبُ يُغازل
وأكبرُ مَن حاك القريض هو الذى … يهزّ جماهيراً بما هو قائل
وأكبر منه مَن إذا قال أصبحت … تناقلُ أقوال الحكيم المحافل
وأكبرُ من هذا وذلك شاعرٌ … عن الحق فى نظم القوافى يُناضل

بغداد — **جميل صدقى الزهاوى**

العصر الذهبى

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقـدمة :

أولع الناس من قديم الزمن بالتفكير فى عصر الانسانية السعيد : عصر الخير العميم الشامل ؛ فبعضهم كان ينشده فى الزمن القديم ويبكى انقضاءه ، وبعضهم ينشده فى المقبل من العصور ، يدنيه رقى الانسان . وكثيراً ما استخدم شعاره أهل الحرص لنيل أطماعهم ، واقتياد الناس لاستثمارهم واستذلالهم ؛ وكثيراً ما علق الأذلاء بكماله حتى إذا تحكموا ساروا على نهج الطغاة ؛ وهو مثل عال ولا تحلو حياة الانسان إلا به ؛ ولئن صدق ما يقوله بعض المفكرين الذين يزعمون تحققه نذير الفناء ، فمرحباً بالفناء يكون نذيره الخير والسعادة الشاملة والمثل العالى ، وقد لا يصدق تشاؤمهم !

الناظم

* * *

عصرَ السلام تحيـة وسلام … خلعتْ عليك رجاءها الأقوام
من كل عصر فى نسيجك لحمةٌ … ألأجل صنعك تدلف الأعوام
إمّا دنوت وما عهدتك دانياً … عنّى على نقص الأنام تمام

نستقبل الأيام وهى كوالح — مستبشرين إذِ التمام إمام
خالوك فى الماضى – ولم تك ماضياً – — إذ زان منه البعد والأوهام
ويرون فى غدهم سراباً نائياً — فيطول نحس العيش والاجرام
تتغير المُثُلُ التى شاقتهمُ — تتبـدل الآمال والأحلام
حسب الورى من حسن عهدك قدوة — علياء ما إنْ شأنها استبهام
ما فاتهم طب الطبيب وإنما — تتباين الأرواح والأفهام
ولانت فى سير النفوس إذا صفت — يدنى إليك البر والاكرام
عطف النفوس على النفوس ولن ترى — أبداً ونفس فى الأنام تضـام
هيهات يكرم فاضلاً ذو خسة — أو يغفر الجانى شآه كرام
استبطأوك وأنت بين جنوبهم — وتَنَظَّروك ودأبك الالمام
ورأوك فى الدهر البعيد ولو دروا — أنْ لو أرادوا كان منك لِمَام
لرأوا مشيئتهم تشاء ولا تشا — هاموا وتحسب أنهم ما هاموا
ومن المشيئة ما يجيء فجاءة — ليست تجزئ أمره الأيام
ونأى بهم عن وِرْدِ خيرك أنهم — للحرص حادٍ بينهم وزمام
أمباغتا بالخير بعـد تمنع — حب الأنام لعهدك استقدام
ولقد يتوب أخو المجانة بغتة — من بعد عيش كله آثام
ويتوب هذا الخلق من شر ومن — إثم فتحمد خيرَك الأيامُ
كم فتنة أججتَ نار جحيمها — شوقاً لعهدك والأنام حُطام
وشعار حق كم غدا أُحبُولة — أترى بحقك فى الأنام لثام
وإذا العبيد تحكموا فى فتنة — ساروا على نهج الظَّلُوم وضاموا
أترى العبيد ببابلٍ وبطيبةٍ — أغرتهمُ بكمالك الآلام
لو أنهم ملكوا لعافوا مسلكا — يدنى إليك وطاشت الأحلام
ولطالما حن اليهود لشرعه — ودعا المسيح له وريمَ سلام
وتَنَظَّر المهدىَّ قوم أمَّلوا — ركباً له يحدو به الاسلام
ثار الفرنس وخيرهم يبغى له — عهداً تدين لشرعه الأحكام
يبكى ويعتنق الغريب مُبَشِّراً — بالشر زال وبالكمال يُشام
ما زال شر – لا – ولم يمهد به — نهجَ السلام الحكمُ والحكام
أنَّى تكون وفى الأنام تفاوتٌ — أُسْدٌ لها فى الصاغرين سَوام
غِرٌّ وذو مكر فلست بكائن — حتى تَسَاوَى فى الأنام الهَام
فمتى يدين لسُنَّةٍ لك جمعهم — ويراك خيراً شَرُّهم فترام
لا يصدق الكهان إن هم أنبأوا — بدوام ما لم يُلف فيه دوام
كم من عهودٍ كان يحسب أهلها — أنْ زل عنها النقص والابرام
نَسِيَ الأنام عهودهم فعهودهم — أقصى وأدنى منهمُ الأوهام
فقد الأنام صفاتِ أجداد لهم — وتحولت وتبـدلت أجسام
والطبع فى غدد الجسوم فعلها — يوماً تصح فلا يكون أثام
وتعود من فرط الصفاء حياتهم — ذهبيـــةً أيامها والعام
خير مَرَى الحرصُ الخسيسُ أقل من — خير لديك تروده الأحـــلام
والنحس عدوى ليس يُقصِى شرَّها — إلا التضافر شاده الأقوام
كذبوا فما أبقى التقاتل بينهم — إلا الضعيف وقد قضى المقدام
خلقت فى سير النفوس مباهجاً — وتجملت بجمالك الأيام
كغناء حادى الركب رَفَّهَ عنهمُ — نغم النشيد ونعمت الأنغام
حُلْمٌ هو المثل الأجلُّ وإنهم — لولا مثال كمالك الأنعام
ولعل عمر الشر ليس بدائم — ينمو سناك فينمحى الاظلام
قالوا إذا ما جاء خيراً كله — لم يبق خير فى الحياة يشام
لولا جهاد فى الشرور تعطلت — سبل المكارم واستنام أنام
إن لم يكن نقص ففيم رجاحة — وبضدها تتميز الأقوام
لا يطعم السعدُ الشهىَّ وشُهْدَهُ — من لا ترود فؤاده الآلام
والوهن يسعى للفناء دبيبه — إن لم يكن حذرٌ وعمَّ سلام
لغز الحياة وليس يفقه لغزها — بين الأنام مُفَهَّمٌ علّام
والشر أهون بعضه من بعضه — فاطلب كمالاً كى يقل الذام
أهلاً بغائلة الفناء نذيرها — عهد يَشُوق سلامُه وتمام
إن لم يصح العيش إلا أن ترى — شرع التنافس فى الأنام يقام
فعسى التنافس فى المحامد ينثنى — طبعاً وإن قيل الأنام لئام
يدنو إذا بطلت ضرورة كائدٍ — يُزجَى بها رزق له وحطام
إن نال كلٌّ مطمئناً رزقَه — فعلام لؤم للورى وخصام
دِينُ التنافس فى المكارم ربما — أنماه نصح فيهمُ وحسام
فترى الورى دينَ الورى وصلاحهم — فرض يدين لشرعه الأقوام

عبد الرحمن شكرى

القصص

من أساطير الإغريق

مأســـاة أم

للأستاذ دريني خشبة

رآها زيوس تقطف الزهر وتتيه فى حدائق السوسن ، و تنشد مع البلابل ألحان الشباب ، فتنصت الطبيعة وتتفتح آذان الورد ، وتحملق نواظر النرجس ترى إلى كليستو الرقيقة رقة النسيم ، الحلوة كأنها حلم جميل فى أجفان عاشق ، الموسيقية التى يستطيل نغمها حتى يبلغ السماء ، ويتسع حتى يغمر الكون ، فيثوى بكل أذن ، ويستقر فى كل قلب ، ويخفق مع نبضات المحبين ، وينسكب ذوباً من دموع المدنفين المعذبين !

رآها زيوس فجُنّ بها ! وبالرغم مما أعطى على نفسه من مواثيق لزوجه حيرا ألا يصبو إلى أنثى غير أزواجه اللائى كن إلى هذه اللحظة ستاً أو أكثر من ست ، فقد ذهب يقتفى أثر كليستو ، ويرهف سمعيه ليملأ بموسيقاها قلبه

كانت تمشى بين صفين من أعواد الزنبق ، تنمقهما ورود ورياحين ؛ وكانت تنثنى وتميس ، فيهتز الروض وينتشى الزهر ، وكلما ترنمت بأغنية من أغنياتها الساحرة ، رددت الأزهار والأطيار ما تغنت ، كأن كل شىء فى تلك الطبيعة الرائعة الفنانة عضو فى فرقة كليستو الموسيقية

وجلست تتفيأ ظل خوخة وارفة كانت تداعبها فتساقط عليها من ثمرها الجنىّ ، ورطبها الشهىّ ، فتتذوقه كليستو وهى تبتسم

وأسكر النسيم الخمرى عينيها الساجيتين ، فاستسلمت للكرى الطارىء والغفوة العارضة ، وتمددت على البساط السندسى ليحسر الهواء عن ساقيها ، ولتكون فتنة يضل فى تيهها قلب زيوس ، وتضرب فى بيدائها نفسه . . . على غير هدى ! ! . . .

وبدا للإلـه الأكبر أن يرتد فتى موفور الشباب ريان الأهاب ؛ ثم يسوق آلهة الأحلام فترقص فى أجفان كليستو ، تبهرج لها من الرُّؤى مايشب فى نفسها رغائب الهوى ولذائذ الحب ، ويثير فيها حرارة الحياة

ونام الخبيث إلى جانبها ، وطفق يروح على وجهها ، ثم نثر ذراعه على جيدها الناهد ، وراح يضغط قليلاً . . . قليلاً

ولقد فعلت الأحلام الحلوة فعلها فى قلب كليستو ، فلما استيقظت ، ووجدت نفسها فى حضن هذا الشاب اليافع الجميل ، لم تنفر ، بل خجلت خجلة زادتها جمالاً ، وضاعفت سحرها وفتونها ؛ وفترت أهدابها فاسترخت ، وفنيت فى حبيبها المفاجىء . . . وفنى هو الآخر فيها

***

وجاءها المخاض !

ووضعت غلاماً أحلى من القبلة الحارة على الثغر الحبيب ، وأعذب من ابتسامة الزهرة طلّها الندى

فلما زارها زيوس وبشرت به ، اهتز الإلـه الأكبر وشاعت الكبرياء فى أعطافه ، وأخذ الغلام فباركه ، وطبع على جبينه الوضاح قبلة أولمبية خالدة ؛ ؛ ثم زف إلى كليستو تلك البشرى التى ظل يخفيها عنها طوال حبه لها ، وذلك حينما أشار إلى ابنه بيمينه البيضاء هاتفاً :

ــ « بوركت يا أركس ! يا أجمل أطفال الأولمب ! »

وقد اضطربت الأم الصغيرة حين سمعت هذا الدعاء ونظرت إلى حبيبها كأنها تستريب ، وقالت له :

ــ « أجمل أطفال الأولمب ؟ إذن من أنت أيها الحبيب ؟ »

ــ « بشراك يا كليستو ! فأنا ربُّك وزوجك وحبيبك زيوس ! » ولم يسعْ كليستو إلا أن تسجد لربها وهى ترتعد من الخوف ؛ فقال لها :

ــ « انهضى ! انهضى ! ماذا تصنعين يا حبيبة ! انهضى فقد رحمت ابننا أركس إلـها ، فاكفليه حتى يشب ، وإياك أن تراكما حيرا فتسحقكما . . »

وقبّل الغلام وقبل الأم ، ، ، وغاب فى الأفق . . .

***

وكانت كليستو أحرص على فتاها من أن تدعه وحده لحظة واحدة ، فاذا خرجت للصيد فى الغابات القريبة ، أقامت عليه حارسين من كلابها الكواسر ، يكفى أحدها لتشتيت شمل جيش بأكمله . وكانت تحمل اليه أثمار اللوز والبندق كلما عادت من الغابة ؛ حتى إذا استد ساعده ، علمته الرماية وألعاب الفروسية ، مستعينة فى ذلك بالسنتور العظيم ، شيرون ، مؤدب هرقل ومدربه

وذاعت الأنباء فى دولة الأولمب ، أن زيوس خليلة يختلف إليها فى الفينة بعد الفينة ، وأنه أولدها طفلاً بارع الحسن ، وسيما قسيما ، يكاد يكون فى مستقبله هرقلا آخر ، يضارع هذا الهرقل الهائل ، ابن ألكمين ، الذى كان يدوّخ أبطال العالم فى ذلك الوقت . . .

وقد مادت الأرض بحيرا حين علمت هذه الأنباء ، لأنها كانت تغار من أزواج زيوس ، وتخشى أن تلد إحداهن بطلاً يكسف شمس ولديها مارس وڤلكان . وكانت الحرب بينها وبين هرقل على أشدها ، فكم نثرت فى طريقه شوكاً ، وكم تفجرت تحت قدميه ينابيع من نار . أفلا يحزنها إذن أن يبرز لها خصم آخر ينغطش حياتها ، ويراوحها بالأشجان والآلام ! !

وكانت كلّيستو تصدح فى أصيل يوم من أيام الربيع ، فتستجيب لها الغابة ، ويردد غناءها الطير ، ويمشى فى إثرها الدوح ، وتهتز الأرض والسماء ؛ وكانت حيرا قد عرفت أوصافها من شيرون ، مدرب فتاها أركس ؛ فلما سمعتها تغنى ، ويمشى وراءها العالم بأسره ، عرفت أنها هى ! !

وكاد قلب حيرا يصبو الى كلّيستو ، مسحوراً بروعة الغناء ، مأخوذاً بترجيع البلابل . . . حتى لكانت تخال الورد نفسه يغنى معها ! ! وكادت بذلك تنسى غيظها ، بل كادت تنخرط فى هذا الحشد الموسيقى الذى يصفق لكلّيستو ويستجيب لألحانها ! ولكن !

لقد ذكرت ابنيها مارس وڤلكان ، وذكرت يوم صرعهما هرقل فى حفل الأولمپياد ، حتى لكانا ضحكة كل راء ! فنسيت الغناء وأصمّت أذنيها ، وغرفت من ماء قريب بيديها غرفة جعلت تتمتم عليها بتعاويذ سحرية ، ورُقى غيبية ، ثم صاحت بالفتاة فسُمّرت مكانها دهشة مأخوذة ، فنثرت حيرا فى وجهها الماء وهى تقول : « شاهَتْ دُبّة ! شاهَتْ دُبّة ! »

وا أسفاه ! !

لقد أحسّت كليستو فى ذراعيها الجميلتين بخدَر شديد ، ثم نظرت فرأت شَعَراً خشناً ينمو بسرعة فيغطّى جسمها البض الجميل كله !

وأحسّت أظافر طويلة غليظة تنبت فى أطارف أصابعها ، ومخالب مرعبة تبرز من أصابع رِجْليها المعبودتين !

وشعرت بوجهها الوضاء المشرق يتغير ويتحول ، ثم يتغير ويتحول حتى لقد رُكب فيه أنف كبير أسود ، وفم مغْبر فى منتهى القبح ، يسيل على جنباته لُعاب شائه كريه !

وخُيّل لها أن ذَنَباً ينبت وراءها ، فتحسّسته فأيقنت أنه ذَيل خبيث . . . ما فى ذلك ريب !

وفزعت كليستو ، فأرادت أن تصيح تستنصر الغابة ، ولكن . . . يا للهول ! لقد راحت تصرخ كما تصرخ الحيوانات ، وتعوى كما تعوى الذئاب ! !

وانخلع قلب الفتاة فحاولت أن تغادر هذا المكان الساحر ، ولكنها لم تستطع أن تنهض على قدمين ، بل انطلقت تعدو على أدبع كأنها بهيمة من بهائم الأرض !

وأصابتها حيرا بظمأ كاد يصهر حلقها فذهبت إلى غدير ترتوى ، ولما انحنت ترشف الماء رأت صورتها المفزعة تتقاب فى صفحته ، وأنها لم تعد كليستو الحسناء بعد ، بل إنها قد انسحرت فصارت دُبّة قبيحة قذرة ذات أنف طويل أسود ، وعينين رجراجتين تقدحان بالشرر

***

وانطلقت فى الغابة تعدو وتعدو ، وتتوارى بين الأشجار حتى لا يراها أحد ، وكانت الحيوانات — حتى ضواريها — تفزع منها كلما مرت بها ، وهكذا شاءت المقادير الظالمة ألا يكون لها صديق حتى من سباع الغابة الموحشة ، التى كانت قبل لحظات ترقص بين يديها . . . وتنشد وتغنى ! !

وضربت فى القفار والفلوات ، مؤثرة ألا تعود إلى ابنها الحبيب أركس فتفزعه ؛ وكانت تختلف الى الغابة ، فاذا مر بها بعض أصدقائها القدماء عرفتهم ولكنها تتوارى عنهم ، وفى نفسها هموم وحسرات

خمس عشرة سنة ! !

قضتها كلّيستو التاعسة فى هذا الشقاء الطويل ، لا تمر بها هنيهة دون أن تفكر فى ابنها وتبكى . . . وتفكر فى مآلها . . .

وتبكي ، وتفكر في ذكريات شبابها ... وتبكي ، وتذكر الموسيقى والغناء . . . وتبكي ! !

واشتعل قلبها شوقاً إلى أركس ، فجلست الى أيكة حزينة تتناجى :

« ترى ! ما ذا تصنع الآن يا بني ؟ أما تزال تنهل كأس هذه الحياة المرة ؟ أم أنت قد طواك الردى ونسيك كبير الأولمب ؟ هل أنت مريض يا أركس ؟ هل في جنبك جرح يتفجر دماً لبعد أمك عنك ، كهذا الجرح الذي تنزف منه نفسي ، وتنسكب حياتي ؟ وهل إذا أصابك ضر ، فأنت واجد قلباً يحنو عليك ويترفق بك .... ويرعاك ؟ ومن هو صاحب هذا القلب الرفيق يا ترى ؟ يا ولدي ! ! . . . يا حبة القلب يا أركس . . . . ! ! »

وتبكي البائسة بكاء يذيب الصخر ، ويحرق فحمة الليل ، ويزلزل أركان الكهف المظلم الذي تعودت قضاء لياليها فيه . . .

***

أما أركس فقد كان هو الآخر يبكي أمه ، حتى استطاع مؤدبه شيرون أن يفل بنصائحه غرب حزنه ، ويطفئ بمواعظه نار أساه ، فنسي ، أو تسلى . . . أو تناسى . . .

واستد ساعده ، وثقف الرماية حتى ما يطيش له سهم ، ولا تخيب له رمية ؛ وأحبه شيرون من سويدائه ، ولازمه طويلاً ، حتى كانت حرب السنتور فودعه وعاش الفتى وحيداً . . . يحيا حياة هي بحياة أمه في شبابها الأول أشبه ؛ فيختلف الى الغابة يصيد منها الثعالب ، والى البرية يرمي فيها الوعول ، ويعود مع الغروب مثقلاً بالصيد

وفيما هو يرتاد الغابة في ضحى يوم شديد القيظ ، إذا أمه المسكينة تلمحه فجأة ، وتعرف فيه ابنها ، وأعز الناس عليها ... ! فتذهل عن نفسها وتقف مشدوهة باهتة لا تنبس ولا تحير !

فهل عرفت هذه التماثيل المرمرية التي تقف صامتة كالألغاز في المتاحف ودور الآثار ؟ لقد كانت كليستو أشد منها تحجراً عند ما شاهدت ابنها بعد هذه السنين الطوال !

ولقد خشيت أن تزعجه بوجودها ، لأن الصيادين لا يرهبون من ضواري الغاب شيئاً كما يرهبون الدباب ، فحاولت أن تختبئ وراء شجرة أو نحوها ، ولكن . . . هيهات ! ! فلقد عجزت عن الحركة المجردة لما تولاها من الحيرة والارتباك !

والتفت أركس ففزع أيما فزع لوجود دبة متوحشة كبيرة الجرم على مقربة منه ، وهو غير متهيئ للرماية ، فارتبك حين تناول قوسه بيد مرتجفة ، وأصابع مرتعشة . . . . ولكنه ، ويا للعجب ! أحس ببريق غريب ينبعث من عيني الدبة ، وشعر بحنان وعطف يتحركان في صميمه من أجلها ، وحاول أن يتعرف مصدر هذا الحنان فلم يستطع ، وضاعف دهشته أن الدبة سمرت مكانها دون ما حراك ، وأن دموعاً حارة أخذت تنسكب بغزارة من عينيها اللتين ترنوان اليه ، وما تريمان عنه ! !

وكم كانت كليستو تتمنى لو تقدر على الكلام فتقص حكايتها على ابنها ، بيد أنها خافت أن تضاعف ازعاجه بصراخها الحيواني المخيف . . . فصمتت . . . وتكلمت عبراتها ! !

ثم . . . .

سدد أركس سهمه إلى رأس أمه ، وكاد السهم المميت يمرق فيودي بحياة أعز الأمهات . . . . لولا أن زيوس . . . الاله الذي طال رقاده ! . . . كان يسمع في تلك الآونة ويرى ، ولولا أن تحركت في قلبه الرحمة هذه المرة ، فلم يبال التدخل في سحر زوجته – حيرا الخبيثة – فأطلق لسان كليستو ، وصاحت فجأة :

« أركس ! ... بني العزيز ! ... أنا هي ... أنا هي أمك .. »

وسقطت القوس من يد أركس ... وكانت مفاجأة مشجية ! وظل الفتى يرمق الدبة عن كثب وهو لا يصدق ! ! وقال لها :

– « ماذا تقولين ؟ أدبة تتكلم ؟ أمّ من ؟ ... من أنا ؟ ... »

– « أنا هي يا بني ... أنا كليستو أمك البائسة ... فعلت بي حيرا ما ترى ... خمسة عشر عاماً يا أركس وأنا أتعذب وأبكي من أجلك في هذه الغابة الموحشة ... ! »

ولم ينبس أركس ببنت شفة ، بل تقدم مهدماً من الهم ، فعانق أمه ... ووقفا لحظة يبكيان !!

ثم تدفق حنان السماء ، وأمطرت رحمة الآلهة ، وأمر زيوس فحملا إلى الأولمب — أركس وأمه — ومن ثمة أطلقهما رب الأرباب في السماء الخالدة ليكونا برجين من أبراجها ، ما نزال نراها إلى اليوم ، وما تزال تحتفظ لهما بعنوان المأساة المؤلمة ، إذ نسمي الأم « الدب الأكبر » ، ونسمي الابن ، أركس الحبيب « الدب الأصغر ... » ... وما تزال حيرا القاسية تنظر اليهما وتتميز من الغيظ (١)

دريني خشبة

(١) أورد الأستاذ جريس . هـ . كيفر في كتابه الجميل عن أساطير اليونان زيادة في آخر هذه الأسطورة لم يأت بها غيره ، بل لم يشر اليها أحد من مؤرخي الأساطير . والزيادة — إذا صدق حدسنا — هي من ابتكار الأستاذ ، ولذا لم نر أن نكمل بها قصتنا

البريد الأدبي

موسم الثقافة الاسلامية

فكرت رابطة الاصلاح الاجتماعي في اجتماعها الأخير — في القيام بدعاية واسعة النطاق لتنظيم « موسم للثقافة الاسلامية » يبتدىء من ٢٠ أغسطس وينتهي في ٢٠ من سبتمبر القادم وإعداد برنامج حافل يشتمل على ما يأتي :

١ — إصدار أعداد خاصة من الصحف الاسبوعية الاسلامية ، تدعو لفكرة الجامعة الاسلامية وتتحدث عن التاريخ الاسلامي وتشرح الثقافة الاسلامية الحق

٢ — إصدار صفحات خاصة من الصحف اليومية تحتوي على آراء الزعماء والقادة في الدعوة للوحدة الاسلامية وحث الشباب الاسلامي على القيام بنشر الثقافة الاسلامية في مختلف الأقطار

٣ — إعداد محاضرات يومية تلقى في المساجد والجمعيات والأندية والروابط وفي المذياع

٤ — إقامة حفلات تعارف وإخاء بين شبيبة العالم الاسلامي

اللغات الاجنبية في الازهر

بحثت لجنة تعديل قانون الأزهر في تعليم اللغات الأجنبية فيه فرأت بالاجماع وجوب تعليمها في كلية أصول الدين لمختلف السنين الدراسية ، ولطلبة التخصص جميعاً ، واختلف في تقريرها على طلاب كليتي اللغة العربية والشريعة ، ويقال إن ذلك الخلاف قد انتهى بتقريرها عليهم كذلك بحجة أن العالم الذي يتخرج في الأزهر وفقاً لنظامه الحديث يجب أن يعد اعداداً اجتماعياً يؤهله لطلب الرزق في كل ميدان من ميادين العمل ، ولا يكون هذا الاعداد صحيحاً إلا إذا ألم بلغة أو لغتين من اللغات الأجنبية ، أما اللغات التي ستقرر دراستها في كليات الأزهر الثلاث فهي الانجليزية والفرنسية والألمانية والفارسية واليابانية والصينية واللاتينية

نسبة بيتين

اطلعنا في العدد ١٠٥ من الرسالة : على مقال : (ساعات مع الكاظمي) للأستاذ كمال ابراهيم نسب فيه هذين البيتين : إلى ابن هانئ الأندلسي :

ما ضرني ان لم أجيء متقدماً السبق يعرف آخر المضمار
وإذا اغتدى ربع البلاغة بلقعاً فلرب كنز في اساس جدار

وهذا سبق قلم من الكاتب ؛ والبيتان هما من خاتمة قصيدة لشاعر المغرب والأندلس في وقته غير مدافع أبي عبد الله لسان الدين ابن الخطيب : دفين فاس ؛ وقد اثبتهما معزوين اليه معاصره وصديقه أبو القاسم محمد الشريف الغرناطي في شرحه لمقصورة « حازم » (١) ؛ وكذلك أثبتهما له من المتأخرين أبو العباس المقري في النفح (٢) ؛ وابن الخطيب هذا أحد مفاخر المغرب وشعرائه المكثرين ، وله من الشعر ما يملأ الدنيا على سعتها ، توقن بهذا إذا ما علمت أنه جمع مطولاته خاصة في ديوان أسماه « الصيب والجهام ، والماضي والكهام » في سفرين ، وجمع مقطوعاته خاصة في ديوان سماه فتات الخوان ، ولقط الصوان » ، واختار من مطالع ماله من الشعر سفراً دعاه « أبيات الأبيات » ، وجمع موشحاته وغيرها من الموشحات التي عارضها في سفر أسماه « جيش التوشيح »

وقد نقبت فيما أعلمه من المكاتب العامة والخاصة عاني أعثر على كنز من هاته الكنوز الثمينة فلم أفلح !

ثم دعاني هذا إلى أن أزمعت منذ حين على جمع ما يمكنني الوصول اليه من شعر هذا الشاعر ، فاجتمع لدي من ذلك — بعد إفراغ الجهد وطول المراجعة — نحو الثلاثة آلاف بيت ، جمعتها مما أمكنني الاطلاع عليه من كتب لسان الدين وغيره من الذين عاصروه أو شغفوا به فعنوا بجمع أخباره ، والتقاط كتاباته وأشعاره ، ما بين مخطوط منها ومطبوع ؛ وسأتربص طويلا علني أصل إلى ما لم يمكني الوصول اليه من شعر هذا الشاعر فأضيفه إلى ما جمعته ، وأطبع الجميع مع مقدمة أقصر فيها القول على تحليل شاعرية لسان الدين ، وبهذا نصل إلى معرفة شاعر كبير قد جهلناه زمناً طويلا . . . ؟

فاس (المغرب الأقصى) — أحمد بن المليح

(١) عن النسخة المخطوطة بخزانة القرويين تحت رقم (415 ل 40) ، ص ١٧ (٢) ج ٤ ص ١٦٩

أرنولد تسفايج

يقيم منذ عامين فى فلسطين كاتب من أعظم كتاب ألمانيا المعاصرين هو القصصى الأشهر أرنولد تسفايج A. Zweig (١)، وقد لجأ إلى فلسطين فراراً من عسف الطغيان الهتلرى، لأنه يهودى تنكره ألمانيا الهتلرية؛ ونزل فى ضيعة فى جبل الكرمل على مقربة من حيفا، وكان مولد هذا الكاتب العظيم فى كلوجاد سنة ١٨٨٧؛ ودرس القانون وامتهن المحاماة، ولكن جرفه تيار الأدب. وقد لفتت اليه الأنظار أولى قصصه: «مذكرات أسرة كاوبفر»، وهى تاريخ أسرة يهودية هاجرت من بولونيا إلى ألمانيا ويظن أنها أسرته الخاصة، ثم اتبعها برواية «أخبار كلوديا Die Novellen um Claudia»، ثم هجر تسفايج القصة مدى حين وانقطع للتأليف المسرحى فنالت قطعه المسرحية نجاحاً عظيما فى ألمانيا والنمسا وفى كثير من الأمم الأخرى التى ترجمت قطعه إلى لغاتها. بيد أنه ترك التأليف للمسرح وعاد إلى القصة منذ عشرة أعوام فنجح فيها نجاحاً عظيما، وأعظم قصصه هى بلا ريب «الجاويش جريشا Sergeant Grischa» التى يصف فيها مناظر الحرب الكبرى فى الميادين الشرقية وصفاً قوياً رائعاً ويصور فيه قائداً ألمانيا يظن أنه لودندورف فى صور لاذعة، ثم اتبعها برواية «عذراء سنة ١٩١٤ Die Junge Frau von 1914»، والتربية فى فردون Die Erziehung vor Verdun

وقد عاد أرنولد تسفايج أخيراً إلى معالجة التأليف المسرحى، وأخرج قطعة مسرحيـــة جديدة أوحت بها إليه إقامته فى مروج فلسطين عنوانها «بونابارت فى يافا Bonaparte vor Jaffa»، ويقول الكاتب الشهير تعليقاً على عوده إلى التأليف المسرحى إنه شعر أثناء اشتغاله بكتابة القصة بأن شهوة المسرح تضطرم فيه مرة أخرى، وأنه فى فترة فراغ وعزلة وضع قطعته الأخيرة فى خمسة فصول، ثم يلخص موضوعها وظروف كتابتها فيما يلى:

«وقفت بطريق المصادفة على رواية تتعلق بحملة بونابارت على مصر ومشروعه فى غزو فلسطين وسورية، والذى سحرنى بنوع خاص هو المشروع الهائل بل الجنونى الذى تصوره نابليون، وهو أن يشق لنفسه طريقاً من عكا وحلب واستانبول ثم البلقان إلى فينا ومن ثم إلى فرنسا، وذلك بعد أن حطم الانكليز سفنه فى أبى قير، ولقد قرأت قصة الغزوة الفلسطينية باهتمام كبير خصوصاً وأن مسرح الحوادث كله يبدو أمام عينى، من شرفة منزلى. فأمامى خليج حيفا، ثم عكا على قيد أميال قليلة، ثم جبل تابور الذى اضطرمت فيه المعارك، حتى خيل إلى وأنا أكتب أننى أرقب حركات الجنود بكل تفاصيلها. وأما عن باعث القصة، فانا نعرف أن نابليون قد أسر فى يافا ثلاثة آلاف من الأتراك؛ ولما لم يستطع إطعامهم أمر بقتلهم، ولكن الواقع أن الفرنسيين غنموا من الجيش التركى الذى قدم من دمشق وهزم فى جبل تابور نحو ستة آلاف قدر من المؤن، وهذه تكفى لاطعام ثلاثة آلاف أسير مدى عشرين يوماً. فاذا كان نابليون قد تصرف طبقاً للضرورات العسكرية فان عمله مع ذلك يبقى بعيداً عن كل عاطفة انسانية

«ولم اتبع فى القطعة المسرحية التى وضعتها الأسلوب التاريخى؛ ولكنى راعيت فيها الاسلوب الواقعى وعالجت مسألة العمل الوحشى (غير الانسانى) وإذا لم يكن من شأنه أن يقع على عاتق ذلك الذى يرتكبه رغماً عن كل البواعث الواقعية. وفى الفصل الأخير الذى تقع حوادثه فى يافا كباقى فصول القطعة، ولكن بعد هزيمة عكا، أتناول باعث مقتل الثلاثة آلاف تركى فى أسلوب ساخر أرمى به إلى تصوير شخصيات الرواية. وقد حاولت أيضاً أن أكشف عن أنانية نابليون، وكيف أن هذه الأنانية كانت متأصلة فى أعماق روحه؛ وإذا كنت قد وفقت فى صوغ الخاتمة، فان النظارة لا بد أن يذكروا واترلو، وفشل نابليون، وخاتمته المحزنة»

مكتبة لموسى بن ميمون

يذكر القراء أنه قد احتفل أخيراً فى مصر وفى كثير من الجامعات والهيئات العلمية الأوربية بذكرى الطبيب الأندلسى اليهودى الأشهر موسى بن ميمون وذلك لمناسبة مرور ثمانمائة عام على وفاته. وقد عاش ابن ميمون فى قرطبة وفى مصر، وكان طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين؛ وكتب مؤلفاته بالعبرية والعربية معاً، وفى أنباء فلسطين الأخيرة أن بلدية مدينة تل أبيب اليهودية قد قررت أن تنشئ مكتبة خاصة بموسى بن ميمون تودع فيها ما انتهى الينا من مؤلفاته سواء بالعربيـة أو بالعبرية أو تراجمها اللاتينية، وكذلك جميع المؤلفات التى كتبت عنه فى جميع اللغات وفى مختلف العصور

(١) وهو غير الكاتب النمسوى الذائع الصيت اشـتيفان تسفايج Stephan Zweig

الكتب

١ — تاريخ القرآن للأستاذ أبي عبـد الله الزنجاني

٢ — الخلق الكامل للأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك

للأستاذ محمد بك كرد علي

— ١ —

تاريخ القرآن هو كما قال المؤلف وجيز في سيرة النبي الأكرم والقرآن الكريم والأدوار التي مرت به من كتابته وجمعه وترتيبه وترجمته إلى سائر اللغات ، طبعته مؤخراً مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . وقد استند المؤلف ، وهو من المستنيرين من علماء إيران ومن اسرة نبيلة بشرفها وعلمها في مدينة زنجان ، في تأليفه على مصادر لكبار علماء السنة والشيعة وجوّد الكلام على ما تقتضيه بيئته ، وربما تجاوزها إلى أبعد غاية كان في مقدوره تجاوزها . وحبذا لو كان قد توسع في القراءات واستخدم لذلك مثلاً كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ والمطبوع في مدينة دمشق . وليته قال لنا شيئاً في القراءات وما هي عليه اليوم في بلاد فارس والهند والصين وتركستان وجاوه والحجاز ومصر والعراق والشام وشمالي أفريقية ، وتوسع في كلامه على ما قاله العلامة نولدكه في هذا المعنى وردّ عليه ؛ ومثله من يحسن عليه الرد ؛ وبسط القول في الترجمات الأفرنجية وأيها أجدر بالعناية والقبول ، إلى غير ذلك مما نرجو أن يتعرض له العلامة المؤلف في طبعة ثانية مزيدة

وقد صدّر الكتاب الأستاذ أحمد أمين صاحب فجر الاسلام وضحى الأسلام بمقدمة موجزة قال فيها : ولئن ساغ في العقل أن يقتتل المسلمون أيام كان هنالك نزاع على الخلافة ، ومن أحق بها ، ومن يتولاها ؛ فليس يسوغ بحال أن يقتتلوا على خلاف أصبح في ذمة التاريخ ، وأنه لولا ألاعيب السياسة ، واستغفال الماكرين لعقول العامة ، واحتفاظ أرباب المطامع والشهوات بجاههم وسلطانهم ، لانمحى الخلاف بين الشيعي والسني ، ولأصبحوا بنعمة الله اخواناً ، ولنظر بعضهم إلى بعض كما ينظر حنفي إلى مالكي ومالكي إلى شافعي ؛ ورجا أن يفكر عقلاء الفريقين في احياء عوامل الالفة ، وأن يترك للعلماء البحث حراً في التاريخ ، ويتلقوا النتائج بصدر رحب ، كما يتلقون النتائج في أي بحث علمي وتاريخي

ورأى صديقي أحمد أمين هو رأى فريق كبير من علماء المسلمين اليوم ، وفي مقدمتهم الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي ، فقد قال في خطابه البديع الذي أجاب به من كرموه في الحفلة الأخيرة في القاهرة : إن من مناهج العمل على ازالة الفروق المذهبية وتضييق شقة الخلاف بينها ، فان الأمة في محنة من هذا التفرق ، ومن العصبية لهذه الفرق ، ومعلوم لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي ، يهدي إلى الحق في أكثر الأوقات ، وإن بعض هـذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ، ونشطت أهلها وخلفت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسي ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها . وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن الكريم وجعلتها شيعاً في الأصول والفروع ، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ، ونتج عنه سخف مثل ما يقال في فروع الفقه الصحيح أن ولد الشافعي كفءٌ لبنت الحنفي ، ومثل ما يرى في المساجد من تمدد صلاة الجماعة ، وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة ، وعذبات العمائم وطول اللحى ، حتى أن بعض الطوائف لاتستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين وتسعى لانشاء مساجد خاصة »

هذه أمنية عقلاء المسلمين ، ويا حبذا لو عني بعض علماء الأزهر فكتبوا كتاباً بل كتباً في منشأ هذا الخلاف بين السنة والشيعة ، والطرق العملية لازالته على ما يحب كل مسلم دَرّاكة ، ولا سبيل إلى ضم الشمل المبتوت ، والخلاص من هذا الاختلاف الممقوت ، بغير الرجوع إلى الكتاب وما صح من السنة ،

والقاء الخلافات جانباً بين أرباب المذاهب الاسلامية

— ٢ —

طالعت بالأمس لمؤلف كتاب « الخلق الكامل » كتاباً جميلاً أسماه « محمد (ص) المثل الكامل » فأكبرت بحثه وغبطته على استخراج العبر من هذه السيرة الشريفة التي تدعو المؤمنين وغيرهم الى التأسي بها . واليوم طالعت كتابه « الخلق الكامل » وهو في مجلدين ضخمين يتبعهما مجلد ثالث ، فرأيت مؤلفاً يجمع بين الثقافتين الاسلامية والغربية ، ويكتب كتابة من تمثل فنه ، وأخذ به ، ودعا اليه مخلصاً مؤمناً . ولقد فزع في وضع كتابه الى أصح المصادر الاسلامية : فزع الى الكتاب والسنة والى آراء علماء الأخلاق من سلف هذه الأمة وبعض رجالها المعاصرين، وفزع الى آراء علماء التربية وفلاسفة الغرب ، واعتبر الاسلام جامعاً لكل الفضائل النفسية والمدنية ، لو تذوقه أهله حق تذوقه ، وعملوا بكل ما أمر به لكانوا خير أمة أخرجت للناس في هذا العصر

عالج المؤلف كل ما يخطر بالبال من النقائص ، وما يقابلها من الحسنات والمكارم ، وهو يرى مثلاً من نقائصنا الخلقية أن يضحك الوالد عند سماع السب والفحش من طفله ، واحتقار بعضهم الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة والتجارة ، ولطم الخدود والعويل على الشبان الذين يجندون لخدمة بلادهم والدفاع عنها ، واحتقار كثير من عاداتنا القديمة وإن كانت حسنة ، والتعلق بالعادات الغربية وان كانت سيئة ، والانغماس في الترف ومحاكاة الفقير الغني ، وتطلع الشبان إلى الزوجات الغنيات وان كن وضيعات الأخلاق ، وتطلع الشابات الى الأزواج الأغنياء وان كانوا فاسدي الأخلاق ، وشهادة الزور وحلف اليمين الغموس واعانة الظالم على ظلمه ، والاقبال على الروايات الهزلية المقوتة والزهد في الكتب الجيدة المفيدة ، والامتعاض من سماع الحق ومقت قائله ، وازدراء المعتصم بدينه المحافظ على شعائره ، وتقريب المستخفين والمستهزئين ، وتكريم الزنادقة والملحدين الى آخر ما عدّد

ويتألف من كل باب من الأبواب التي عالجها رسالة جديرة بأن تقرأ ويستفاد منها . ومما قال إن فلاسفة الغرب وإن كان يرجع اليهم فضل السبق في بحث أمهات الفضائل فهم لم يبينوا مناطها ، ولم يضعوا لها حداً فاصلاً بين ما يحقق الفضيلة ومالا يحققها ، فانهم لم يذكروا متعلق العفة ولا أي شيء تكون ولا مقدارها الذي إذا تجاوزه المرء وقع في الفجور ، وكذلك الحلم لم يذكروا مواقعه ومقداره ، وأين يحسن وأين يقبح وكذلك الشجاعة . وأفاض في الفلسفة الخلقية وينابيع الخلق والعواطف والانفعالات النفسية وينابيع الأخلاق والعادة والبيئة ووسائل تقويم الخلق والموازين الخلقيـة ووجوه الخير ومظاهر التربية الخلقية في الأمم الغربية والشرقية ومظاهر الأخلاق الاسلامية ومظاهر الأخلاق الفردية ومظاهر الخلال الاجتماعية إلى غير ذلك من الأبحاث التي خاض عبابها وجزأها أجزاء ، ومزج فيها الكلام في القديم والحديث على النحو الذي تقبله النفوس ، ولا يكون مثالاً خيرٍ حي لا ينتفع به قارئه لبعده عن مستوى عقله وخلقه وعاده وحاجته

وعلى الجملة فان كتاب الخلق الكامل استجمع صفات التأليف النافع ، وظهرت شخصية مؤلفه في صفحاته ، وتحمسه لما يريد أن يدعو اليه ليستقيم حال هذا المجتمع الذي كثرت شروره ومفاسده على صورة لم تكن للمسلمين في الدهر السالف ؛ دهمتهم سيئات الحضارة الجديدة فسهل عليهم قبولها أكثر من حسناتها التي صعب عليهم الأخذ بها كلها ، ومن الغريب أننا بقدر ما يعلو مستوانا في العلم نزداد ضعة في الأخلاق إلا قليلاً ، وبعداً عن الجميل من حسنات الأجداد والآباء ، حتى لقد تجد في المتعلمين أخلاقاً شاذة واستهتاراً رديئاً قد لا تقع على مثله في العامة والأميين ، وهذا من جملة سيئات المدنية المادية التي تجردت من عاطفة الدين وعاطفة الخلق ، وقاست كل أمر على المادة والنفع العاجل

محمد كرد علي

وزارة الأوقاف

اعلان

تشهر الوزارة توريد الكتب والأدوات الدراسية اللازمة لإدارة التعليم فى سنة ٩٣٥ الدراسية والوارد بيانها بالكشوف المودعة مع شروط التوريد بقسم الإدارة بديوان الوزارة و بمكتب إدارة التعليم الكائن بسراى اليازجى بروض الفرج لمن يريد الاطلاع عليها . وتصرف استمارة العطاء وشروط التوريد من إدارة التعليم نظير مبلغ مائة مليم يوردها الطالب لخزينة الوزارة

وتقدم العطاءات ومعها العينات مصحوبة بتأمين ابتدائى يوازى ٢٪ اثنين فى المائة من قيمتها داخل مظروف مختوم بالشمع الأحمر بعنوان حضرة صاحب المعالى وزير الأوقاف إلى قسم الادارة بديوان الوزارة لغاية ظهر يوم الثلاثاء الموافق ٢٠ أغسطس سنة ٩٣٥ . ولمقدمى العطاءات الحق فى الحضور أمام لجنة المزادات بالوزارة أثناء فتح المظاريف بجلسة يوم الأربعاء الموافق ٢١ أغسطس سنة ٩٣٥

ومن يرس عليه أى عطاء يكمل تأمينه إلى ١٠٪ عشرة المائة من قيمة ما يرسو عليه ، وللوزارة الحق فى قبول أو رفض أى اعطاء دون ابداء الأسباب م؟

اعلانات قضائية

فى يوم الثلاثاء ٢٧ أغسطس سنة ٩٣٥ سيباع علناً الساعة ٨ افرنكى صباحاً وما بعدها بحارة زاوية نصر نمرة ١٦ تبع قسم اللبان منقولات منزلية مبينة بمحضر الحجز بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٩٣٥ وفاء لمبلغ ١٨٦ قرشاً صاغاً خلاف رسم التنفيذ وأجرة النشر نفاذاً للحكم نمرة ١٠٠٠ سنة ١٩٣٥ منشية وهذا البيع بناء على طلب الست أسما سلامه محمد ضد ضباشه محمد على صالح فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الأحد ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٥ الساعة ٨ افرنكى صباحاً بناحية مونسه والأربعاء ٢٨ منه بسوق أشمون إذا لزم سيباع علناً جاموسة خضراوى بقرون مصرى سن ٦ سنوات سليمة ومقدار من القمح يقدر بأردبين قمح استرالى ملك أحمد عفيفى منصور من الناحية وفاء لمبلغ ٢١٩٨ قرش صاغ بخلاف أجرة النشر نفاذاً للحكم نمرة ١٣٠٠ سنة ١٩٣٥ وهذا البيع بناء على طلب فالية على منصور من مونسه فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الأربعاء ٢١ أغسطس سنة ١٩٣٥ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بناحية كمشوش مركز منوف وفى يوم السبت ٢٤ أغسطس سنة ١٩٣٥ بسوق منوف سيباع علناً ١٠ أردب قمح استرالى من محصول العام و ٦ كرامى خيرزان و ١ سرير حديد أسود بوصة ونصف وهذه الأشياء ملك عبد الحميد أفندى اسماعيل جمعة المقيم بكموش نفاذاً للحكم الصادر من محكمة منوف الجزئية فى القضية المدنية نمرة ٥٦٢٢ سنة ١٩٣٤ وفاء لمبلغ ١٤ جنيه و ٥٤٠ مليم بخلاف رسم هذا والنشر وما يستجد وهذا البيع بناء على طلب زكى محمود أفندى ناشر الكاتب بمحكمة شبين الكوم الأهلية فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٥ الساعة ٨ صباحا بكفر قباله مركز المحلة وفى يوم الثلاثاء التالى بسوق المحلة كطلب السيد محمد مراد من الناحية سيباع علنا خروفين وأردب قمح ملك ابراهيم يوسف الغبارى من الناحية نفاذا لحكم محكمة المحلة الأهلية نمرة ٣٥١٨ سنة ١٩٣٥ وفاء لمبلغ ١ ج و ٨٦٠ م فعلى راغب الشراء الحضور

تاريخ العرب

فى الجاهلية وصـــدر الاسلام

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

المدرس بكلية اللغة العربية

اشتمل هـذا الـكتاب على تاريخ دول العرب فى الجاهلية ، وعلى السيرة النبوية ، وعلى تاريخ دولة الخلفاء الراشـدين . وفى تاريخ العرب فى تلك العهود الثلاثة مسائل كثيرة تحتاج الى التمحيص ، وشبهات للشعوبية فى القديم والحديث ، فعنى هذا الـكتاب بتمحيصها ، وكشف أمر تلك الشبهات فيها ، وسلك فى دراسـة السيرة النبوية منهجاً جديداً كشف فيه غامضها ، ورد بأقوى الأدلة كل ما يحاول به تشويه شيء منها ، ومن ذلك غزوات النبى صلى الله عليه وسلم مع يهود المدينة ، فقد أراد صاحب كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » أن يرجع أسبابها الى طمع المسلمين فى أموال أولئك اليهود ، وذكر أنه من أجل ذلك تعرض النبى صلى الله عليه وسلم لدينهم ، وكلفهم أن يعترفوا برسالته وهم لا يمكنهم أن يعترفوا برسول من غير بنى اسرائيل ، ولو أنه اقتصر على محاربة الوثنية العربية وحدها لما وقع نزاع بينه وبين اليهود الذين يشاركونه فى أمر تلك الوثنية

فأثبت له صاحب كتاب « تاريخ العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام » أن اليهود هم الذين بدءوا المسلمين فى ذلك النزاع بعد أن جمع النبى صلى الله عليه وسلم بين الفريقين فى حلف واحد ، وجعل منهم أمة واحدة تجمع بينها رابطة الوطن ، وإن اختلف دينها الى الاسلام واليهودية . أما ذلك المال فكان الاسلام يحرم أن ينظر اليه المسلمون فى قتالهم ، وكان الله جل شأنه يؤدبهم بالقول وبالفعل إذا خالف بعضهم ذلك كما حصل منهم فى غزوة بدر وغزوة أحد ، وإنما كان سبب قتال اليهود نقضهم ذلك الحلف ، وكراهتهم أن ينهض العرب بذلك الدين الجديد وهم أصحاب البلاد ، واليهود قوم طارئون عليهم ، فكان شأنهم فى ذلك شأن الأجانب الآن فى بلادنا ، وإذا كان من حق الأجنبى على صاحب الوطن أن يكرم جواره ، فمن حق صاحب الوطن على الأجنبى أن يراعى ذلك منه فلا يكره الخير له ، ولا يقف حجر عثرة فى سبيل نهوضه ، فاذا لم يراع ذلك له كان من حقه أن يخرجه من وطنه ، وألا يكرم جواره كما لم يكرم جواره

ومن ذلك أيضاً تلك الفتن التى حدثت بين الصحابة فى عهد الخلفاء الراشدين ، فقد أدى للتاريخ حقه فيها ، كما أدى لأولئك الأصحاب حقهم فى صحبتهم لصاحب الرسالة ، وفى عظيم جهادهم فى نشر تلك الديانة . وهكذا سار المؤلف فى كتابه يعنيه تحقيق مسائل التاريخ أكثر من عنايته بسرد أخبارها ، ويشفى فى ذلك غليل من يريد الوصول إلى الحق فيها ؟ (ص)